بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة يوسف

فوائد – منوعات – فضائل – أقوال

جمع وإعداد

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت – مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

كانت البداية بفضل الله : الاثنين : ٢٦ / رمضان / ١٤٣٩هـ

مقدمة

- **سورة يوسف سورة مكية .**

قال الآلوسي: سورة يوسف مكية كلها على المعتمد .

- **تسمى سورة يوسف :**

لاشتمالها على قصته .

كما أن معظم ما فيها قصته عليه السلام .

وليس لها اسم سواه .

- **صلة هذه السورة بالتي قبلها .**

المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها سورة هود قوية جداً وبيان ذلك :

أ- أن سورة يوسف متممة لما في سورة هود من قصص الرسل عليهم السلام .

ب-التدليل في كل منهما على رسالة محمد ﷺ بالوحي إليه .

ففي هود (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) .

وفي سورة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) .

ج- في كل منهما ذكر لما لاقاه الأنبياء من الأذى .

فإذا كانت سورة هود قد بينت ما لاقاه الأنبياء من جانب أقوامهم ، فإن سورة يوسف قد بينت ما لاقاه نبي الله يوسف من الأقارب .

- **سبب نزولها :**

عن سَعْد بن أبي وقاص (قَالَ : أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَتَلاَ عَلَيْهِمْ زَمَانًا ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينَ) إِلَى قَوْلِهِ (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) فَتَلاَهَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَانًا ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ حَدَّثْتَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) الْآيَةَ ، كُلُّ ذَلِكَ يُؤْمَرُونَ بِالْقُرْآنِ.

- **وهي سورة مكية .**

نزلت هذه السورة بعد موت خديجة وأبي طالب سندا رسول الله ﷺ في مواجهته لأذى المشركين .

فالسورة نزلت في تلك الفترة الحرجة .

ونزول سورة يوسف في هذه الفترة، كان من أعظم المسليات التي واسى الله تعالى بها نبيه ﷺ فقد أخبره عما دار بين يوسف وإخوته، وعما تعرض له هذا النبي الكريم من مصائب وأذى ... .

ولا شك أن في قصة يوسف وما يشبهها، تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه.

- **فضائل هذه السورة .**

أن الله تعالى سمى ما فيها أحسن القصص ، من بين سائر القصص التي ذكرت في القرآن كله .

سمى الله ما فيها أحسن القصص لأمور :

قيل : لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم ما تضمنته هذه القصة .

وقيل : لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره عن أذاهم ، وعفوه عنهم .

وقيل : لما فيها من ذكر الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والجن ، والإنس ، والأنعام ، والطير ، وسير الملوك

والمماليك ، والتجار ، والعلماء ، والجهال ، والرجال ، والنساء وحيلهن ومكرهن ، وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة .

وقيل : لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة .

- **أهداف السورة :**

أ- إثبات رسالة محمد ﷺ .

بقوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) .

وبقوله تعالى (ذلك من أنبياء الغيب نوحيه إليك) .

ب- بيان إعجاز القرآن .

وذلك بقوله تعالى (إنا أنزلناه قرآنا عربياً) .

ج- الاعتبار بقصص الرسل الكرام .

قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة) .

- ولم يذكر اسم يوسف عليه السلام في غير هذه السورة سوى مرتين: إحداهما في سورة الأنعام في قوله تعالى وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا، وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ ... الآية ٨٤.

والثانية في سورة غافر في قوله تعالى وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ ...

- ويوسف عليه السلام -وهو الشخصية الرئيسية في القصة- حدثتنا عنه حديثا مستفيضا نستطيع من خلاله، أن نرى له عليه السلام مناقب ومزايا متنوعة من أهمها ما يأتي:

امتلاكه لنفسه ولشهوته مهما كانت المغريات، بسبب خوفه لمقام ربه، ونهيه لنفسه عن الهوى ... .

ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ، قالَ مَعاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ... .

قال الشيخ القاسمي: قال الإمام ابن القيم ما ملخصه: «لقد كانت دواعي متعددة تدعو يوسف إلى الاستجابة لطلب امرأة العزيز منها: ما ركبه الله في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ...

ومنها: أنه كان شابا غير متزوج.. ومنها: أنها كانت ذات منصب وجمال.. وأنها كانت غير آبية ولا ممتنعة ... بل هي التي طلبت وأرادت وبذلت الجهد..

ومنها: أنه كان في دارها وتحت سلطانها.. فلا يخشى أن تنم عليه..

ومنها: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن ...

ومنها: أنها توعدته بالسجن والصغار إن لم يفعل ما تأمره به..

ومنها: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يجعله يفرق بينه وبينها ...

ومع كل هذه الدواعي، فقد آثر يوسف مرضاة الله ومراقبته، وحمله خوفه من خالقه على أن يختار السجن على ارتكاب ما يغضبه.

صبره الجميل على المحن والبلايا، ولجوؤه إلى ربه ليستجير به من كيد امرأة العزيز وصواحبها (قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ) .

نشره للدين الحق، ودعوته لعبادة الله وحده، حتى وهو بين جدران السجن، فهو القائل لمن معه في السجن: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ، أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ....

حسن تدبيره للأمور، وتوصله إلى ما يريده بأحكم الأساليب، وحرصه الشديد على إنقاذ الأمة مما يضرها ويعرضها للهلاك، قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ...

عزة نفسه، وسمو خلقه، فقد أبى أن يذهب لمقابلة الملك إلا بعد إعلان براءته وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ...

تحدثه بنعمة الله، ومعرفته لنفسه قدرها، وطلبه المنصب الذي يناسبه، ويثق بقدرته على القيام بحقوقه قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.

ذكاؤه وفطنته، فقد تعرف على إخوته مع طول فراقه لهم: وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ....

عفوه وصفحه عمن أساء إليه قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ...

وفاؤه لأسرته ولعشيرته اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ.

شكر الله تعالى على نعمه ومننه رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ.

- **بعض الأحاديث في فضل نبي الله يوسف :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ قَالَ أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ ، قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا) متفق عليه .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى. قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ لَبْثِ يُوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ) متفق عليه .

وفي رواية (لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لأَجَبْتُهُ) .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)) .

[يوسف : ١ – ٢] .

(**الر**) هذه تسمى الحروف المقطعة.

قيل: إن هذه الحروف أسماء للسور.

وقيل: إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

وقيل: إنها اسم الله الأعظم، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال.

وقيل: هي ما استأثر الله بعلمه.

وقيل: هي حروف هجائية ليس لها معنى، ورجح هذا القول الشيخ ابن عثيمين وقال: وحجة هذا القول: أن القرآن نزل بلغة العرب، وهذه الحروف ليس لها معنى في اللغة العربية.

وأما الحكمة منها: فأرجح الأقوال أنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم، ورجح هذا القول ابن كثير في تفسيره فقال: وقال آخرون إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وإليه

ذهب الشيخ أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية.
وقد رجح هذا الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان حيث قال بعد أن ذكر الخلاف: أما القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو: أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله.

وقال في تفسير سورة الأعراف: والقول الذي دل عليه استقراء القرآن هو قول بعض العلماء: إن المراد بالحروف المقطعة في أوائل السور: إظهار إعجاز القرآن، فكأن الله يقول للبشر (المص) هذه حروف من الحروف المتداولة بين أيديكم تركبون منها كلامكم، فلو كان هذا الكلام من عند غير الله وهو مُؤلَّف من حروفكم المتداولة بين أيديكم لكنتم تقدرون على تأليف مثله، فَلِما عَجَزْتُم عن تأْلِيف مثله وهو من الحروف المعْرُوفة لَدَيْكُمْ مركب منها، عرفنا بذلك أنه تنزيل من حكيم حميد لا مِنَ البَشَرِ.
ووجه الاستقراء الذي دل على هذا القول: أن الله في جميع القرآن في جميع السور المبدوءة بحروف مقطعة لم تُذكر منها سورة واحدة إلا وجاء بعدها التنويه بشأن القرآن والرفع من شأنه، فدل هذا على هذا، ولم يخلُ من هذا في سائر القرآن إلا سورتان: سورة مريم، وسورة القلم، أما غير ذلك فلا تُذكر الحروف المقطعة إلا ذُكر بعدها التنويه بشأن القرآن والرفع من أمرِه.
قال في البقرة (الم) فأتبعه بقوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِين).
وقال في آل عمران (الم. الله لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فأتبعه بقوله (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ).
وقال هنا في الأعراف (المص) ثم أتبعه بقوله (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ).
وقال في سورة يونس (الر) ثم أتبعه بقوله (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ).
وقال في سورة يوسف (الر) ثم قال (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبين).
وقال في الرعد (المر) ثم قال (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ).
وقال في سورة الخليل (الَر) ثم قال (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).
وقال في سورة الحجر (الَر) ثم قال (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ) وهكذا في سائر القرآن إلا في سورة مريم والقلم. (العذب النمير).
(**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**) أي : تلك الآيات التي نتلوها عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة وفي غيرها، هي آيات الكتاب الظاهر أمره، الواضح إعجازه، بحيث لا تشتبه على العقلاء حقائقه، ولا تلتبس عليهم هداياته.

- (**تلك**) اسم إشارة، المشار إليه الآيات، والمراد بها آيات القرآن الكريم ويندرج فيها آيات السورة التي معنا.
- و(**آيَاتُ**) جمع آية ، والآية العلامة ، وسميت جمل القرآن آيات للإشارة إلى أنها في عظمتها وإعجازها ودلالتها القاطعة على الحق كأنها الآيات المعجزات التي كانت يزود بها الأنبياء .
- (**الكتاب**) المراد به القرآن الكريم . وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ).
وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ. مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)
وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.
(**المبين**) المظهر لطريق الحق موضّح له، بل لكل ما يحتاج الناس إليه .(يعني أن القرآن أظهر كل شيء يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم) .
وقيل : المراد بالمبين : البيّن ، أي : الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أي : ظهر.
ولو قيل : إنه مبين بيّن فلا بأس .

والقاعدة : الكلمة إذا احتملت معنيين مساويين لا ينافي أحدهما الآخر وليس أرجح منه ، فإنها تُحمل عليهما جميعاً .

- **قال أبو السعود** : قوله تعالى (المبين) من أبان بمعنى بان ، أي : الظاهرِ أمرُه في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه بنوعيه لا سيما الإخبارُ عن الغيب ، أو الواضحِ معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقُه ولا يلتبس لديهم دقائقـُه لنزوله على لغتهم . أو بمعنى (بيّن) أي المبين لِما فيه من الأحكام والشرائعِ وخفايا الملكِ والملكوتِ وأسرارِ النشأتين في الدارين وغيرِ ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص .
- **قال الرازي** : وَإِنَّمَا وُصِفَ الْقُرْآنُ بِكَوْنِهِ مُبِينًا لِوُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزَةٌ قَاهِرَةٌ وَآيَةٌ بَيِّنَةٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ .

وَالثَّانِي: أَنَّهُ بَيَّنَ فِيهِ الْهُدَى وَالرُّشْدَ، وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَلَمَّا بُيِّنَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِيهِ كَانَ الْكِتَابُ مُبِينًا لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ بُيِّنَتْ فِيهِ قِصَصُ الْأَوَّلِينَ وَشُرِحَتْ فِيهِ أَحْوَالُ الْمُتَقَدِّمِينَ.

- **وقال ابن عطية** : ووصفه ب (المبين) قيل : من جهة أحكامه وحلاله وحرامه ، وقيل : من جهة مواعظه وهداه ونوره ، وقيل : من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان –روي هذا القول عن معاذ بن جبل– ويحتمل أن يكون مبيناً لنبوة محمد بإعجازه ، **والصواب** أنه " مبين " بجميع هذه الوجوه .

(**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) أي : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد ﷺ بلسان عربي مبين .

فلغة العرب يجب أن توقر وأن تعظم لأنها لغة القرآن .

كما قال تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) .

وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

وقال تعالى (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) .

وقال تعالى (قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) .

(**لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) ، لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به، تعقلون معانيه، وتفهمون ألفاظه، وتنتفعون بهداياته، وتدركون أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله عز وجل .

- **قال البيضاوي** : قوله تعالى (لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) علة لإنزاله بهذه الصفة كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه ، وتستعملوا عقولكم .
- **وقال أبو السعود** : قوله تعالى (لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) أي : لكي تفهموا معانيَه طراً وتحيطوا بما فيه من البدائع خُبْراً وتطّلعوا على أنه خارجٌ عن طوق البشر منزَّلٌ من عند خلاق القُوى والقدر

فالله تعالى أخبر أن المقصود الأعظم من إنزال القرآن تفهمه وتدبره والعمل به .

قال تعالى (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

وقال تعالى (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) .

وقال تعالى (سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

وقد ذم الله من لا يفهم ، أو من يريد أن لا يفهم .

فقال تعالى (وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ) .

وقال تعالى (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) .

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف

الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وفي أشرف شهور السنة، فكمل له الشرف من كل الوجوه .

نزله بأشرف لغة . وهي لغة العرب .

وبأشرف ليلة : وهي ليلة القدر .

وأنزله مع أشرف الملائكة : وهو جبريل .

على أشرف مكان : وهو مكة .

على أشرف رسول : هو النبي ﷺ .

إذاً صار القرآن عربياً ليفهم مراد الله تعالى منه .

وقد أقسم الله تعالى بذلك فقال (حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) .

الفوائد :

١- بيان إعجاز القرآن الكريم .

٢-أن القرآن حروف تكلم الله به بحروف خلافاً لأهل البدع .

٣- أن هذا القرآن الذي أعجز العرب من الحروف التي يُركّبون منها كلامهم ، ومع ذلك أعجزهم .

٣-أن القرآن مبين ، أي : مظهر للحق ، ولكل ما يحتاج إليه الناس .

٥- أن القرآن مكتوب ، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة ، ومكتوب في الصحف التي بين أيدينا .

٦-علو الله تعالى لقوله (إنا أنزلناه ..) والنزول لا يكون إلا من أعلى .

٧-أن القرآن منزل غير مخلوق .

٨- أن كون القرآن باللغة العربية منقبة كبرى للعرب .

٩- لا يمكن فهم القرآن الكريم إلا بمعرفة لسان العرب ، ولذلك ينبغي على المسلمين على اختلاف ألسنتهم تعلم لغة القرآن لفهمه وتدبره وتلاوته .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)) .

[يوسف : ٣] .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) أي : نحن نقص عليك- أيها الرسول الكريم «أحسن القصص» أي: أحسن أنواع البيان، وأوفاه بالغرض الذي سيق من أجله.

وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص، لاشتماله على أصدق الأخبار، وأبلغ الأساليب، وأجمعها للحكم والعبر والعظات.

والباء في قوله بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ للسببية متعلقة بنقص، وما مصدرية.

أي: نقص عليك أحسن القصص، بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو في الذروة العليا في بلاغته وتأثيره في النفوس .

- **قال ابن عاشور** : وقصص القرآن أحسن من قصص غيره من جهة حسن نظمه وإعجاز أسلوبه وبما يتضمّنه من العبر والحكم ، فكلّ قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه ، وكلّ قصة في القرآن هي أحسن من كلّ ما يقصّه القاصّ في غير القرآن.

وليس المراد أحسن قصص القرآن حتى تكون قصّة يوسف عليه السلام أحسن من بقيّة قصص القرآن كما دلّ عليه قوله (بما أوحينا إليك هذا القرآن) .

- **قال ابن تيمية** : وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) قِصَّةَ يُوسُفَ وَحْدَهَا بَلْ هِيَ مِمَّا قَصَّهُ اللَّهُ وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي أَحْسَنِ الْقَصَصِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلَّا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

فَبَيَّنَ أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي قَصَصِ الْمُرْسَلِينَ وَأَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ بِالنَّصْرِ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ قِصَّةَ مُوسَى وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ بِكَثِيرٍ كَثِيرٍ، وَلِهَذَا هِيَ أَعْظَمُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ ثَنَّاهَا اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا وَبَسَطَهَا وَطَوَّلَهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا؛ بَلْ قَصَصُ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ -كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُرْسَلِينَ- أَعْظَمُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَلِهَذَا ثَنَّى اللَّهُ تِلْكَ الْقَصَصَ فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يُثَنِّ قِصَّةَ يُوسُفَ .

وقال رحمه الله : .... وَأَمَّا قِصَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَتِلْكَ أَعْظَمُ وَالْوَاقِعُ فِيهَا مِنْ الْجَانِبَيْنِ فَمَا فَعَلَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ الدَّعْوَةِ إلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَدِينِهِ وَإِظْهَارِ آيَاتِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَمُجَاهَدَةِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ هُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلِهَذَا كَانُوا أَفْضَلَ مِنْ يُوسُفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَمَا صَبَرُوا عَلَيْهِ وَعَنْهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي صَبَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ وَعَنْهُ ، وَعِبَادَتُهُمْ لِلَّهِ وَطَاعَتُهُمْ وَتَقْوَاهُمْ وَصَبْرُهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ أَعْظَمُ مِنْ طَاعَةِ يُوسُفَ وَعِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ أُولَئِكَ أُولُوا الْعَزْمِ الَّذِينَ خَصَّهُمْ اللَّهُ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) .

فَقِصَصُهُمْ أَحْسَنُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ ؛ وَلِهَذَا ثَنَّاهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَا سِيَّمَا قِصَّةُ مُوسَى . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : أَحْسَنُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ حَدِيثُ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى . (الفتاوى) .

- **قال القرطبي** : اختلف العلماء لِمَ سُمِيت هذه السورة أحسن القَصَص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العِبر والحِكم ما تتضمن هذه القصّة ؛ وبيانه قوله في آخرها (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب) .

وقيل : سماها أحسن القَصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم بعد الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال (لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ اليوم) .

وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجنّ والإنس والأنعام والطّير ، وسير الملوك والممالك ، والتّجار والعلماء والجهّال ، والرجال والنّساء وحِيلهنّ ومكرهنّ ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَرَ وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القَصَص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز ؛ قيل : والملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقي ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير. .

(**وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**) أي : وَإِن كُنتُ (مِن قَبْلِهِ) أي : من قبل إيحائِنا إليك هذه السورةَ (لَمِنَ الغافلين) عن هذه القصة لم تخطُر ببالك ولم تقرَعْ سمعَك قطُّ . كما قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا) .

قال تعالى (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) .

- الغفلة هنا معناها عدم العلم ، فليست ذماً للنبي ﷺ .

ومن معانيها : عدم القصد :

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

ومن معانيها : الاعراض عن الحق إلى الباطل والاشتغال بالباطل .

قال تعالى (ولا تكن من الغافلين) .

الفوائد :

١- أن القرآن مشتمل على أحسن القصص .

٢- **قال السعدي** : واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

٣- تقرير نبوة الرسول ﷺ وإثباتها بأقوى برهان عقلي وأعظم دليل نقلي .

إن محمداً ﷺ هو النبي الأمي الذي لم يكن يعلم شيئاً من القرآن .

لقوله تعالى (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) .

وقال تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) .

٤- أن الإنسان لا يعلم إلا ما يُعلّم .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا) .

وقال تعالى (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) .

وقال تعالى (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى) .

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)) .

[يوسف : ٤-٥] .

(**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ**) يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قَصَصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو: يعقوب، عليه السلام .

(**يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**) وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا [سواه] والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه.

وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) .

- وقوله (إِنِّي رَأَيْتُ) من الرؤيا النومية لا من الرؤية البصرية كما يدل عليه (لاَ تَقْصُصْ رُءيَاكَ على إِخْوَتِكَ) .
- وهذه الرؤيا إرهاصات ومقدمات لأمور عظيمة .
- **قال السعدي** : فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبده، وإحساناً إليه، فأوَّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها .

(**قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا**) نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقصّ رؤياه على إخوته؛ لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها على إخوته فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له .

(**فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**) أي : فيحتالوا في إهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك.

- قوله يا بُنَيَّ تصغير ابن. والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه، والتلطيف معه.
- وإنما قال له ذلك، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله تعالى سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيماً ، ويهبه منصباً جليلاً ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسوداً من كثير من الناس، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له، إذا ما قص عليهم رؤياه، ومن عدوانهم عليه.
- **قال البغوي** : قوله تعالى (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان .
- **قال ابن كثير** : ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود .

(**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**) تعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذي يغريهم بالكيد له إذا ما قص عليهم ما رآه، وهو بذلك لا يثير في نفسه الكراهة لإخوته.

أي : لا تخبر إخوتك بما رأيته في منامك، فيحتالوا للإضرار بك حسدا منهم لك، وهذا الحسد يغرسه الشيطان في نفوس الناس، لتتولد بينهم العداوة والبغضاء، فيفرح هو بذلك، إذ كل قبيح يقوله أو يفعله الناس يفرح له الشيطان.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً ، ولا سراً ولا جهاراً ، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

الفوائد :

١-أنه يجوز للإنسان في بعض الأوقات أن يخفي بعض النعم التي أنعم الله بها عليه، خشية حسد الحاسدين، أو عدوان المعتدين.

٢- أن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه.

ومن الأحاديث التي وردت في فضل الرؤيا الصالحة :

عن عائشة . قالت (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق

الصبح....) .

وفي حديث آخر (الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) .

وفي حديث ثالث (لم يبق من النبوة إلا المبشرات، وهي الرؤيا الصالحة للرجل الصالح، يراها أو ترى له) .

٣- وجود الحسد عادة بين الإخوة والأقارب .

وقد أثبت القرآن هذه الحقيقة في موضعين :

الموضع الأول : نبأ ابني آدم عندما تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فحسده أخاه وبغى عليه حتى قتله .

قال تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

الموضع الثاني : خبر يوسف مع إخوته .

قال القرطبي : ... وفيها دليل واضح على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا ، فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم ، ولم يبال بذلك في نفسه ، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه ، ويدل على أن يعقوب كان أحس من بنيه حسد يوسف ، فنهاه عن قص الرؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم ، فيعملوا الحيلة في هلاكه .

قال بعض العلماء : فيه الحسد بين الإخوة والأقارب .

٤- كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء.

قال الآلوسي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والظاهر أن القوم -أي إخوة يوسف- كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء .

٥- أن من رأى رؤيا صالحة فلا يخبر بها إلا من يحب .

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ (إِنْ كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي، قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ فَقَالَ وَأَنَا كُنْتُ لأَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلاَ يُحَدِّثُ بِهَا إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفِلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلاَثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ) متفق عليه .

٦- أن الرؤيا لا ينبغي أن تقص إلا على عالم مشفق أو ناصح .

وقد جاء في حديث (لا تقصوا الرؤيا إلا على عالم أو ناصح) .

- **قال القرطبي** : هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير مشفق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها .

٧- يجوز التحذير من الشخص بعينه إذا يخشى ضرره .

قال ﷺ (الدين النصيحة) .

وكذلك قال النبي ﷺ لعائشة في شأن رجل مقبل عليه : بئس أخو العشيرة .

٨- مشروعية الحذر والأخذ بالحيطة في الأمور الهامة . الثلاثاء : ٢٧ / رمضان / ١٤٣٩هـ

(**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)**) .

[يوسف : ٦] .

(**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ**) أي : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة، فإنه سبحانه يجتبيك ويختارك لأمور عظام في مستقبل الأيام .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) أي : مثل ذلك الاجتباء البديع الذي رأيته في النوم من سجود الكواكب والشمس والقمر يجتبيك ربك ، ويحقق فيك تأويل تلك الرؤيا ، فيجعلك نبياً ، ويصطفيك على سائر العباد ، ويسخرهم لك كما تسخرت لك تلك الأجرام التي رأيتها في منامك فصارت ساجدة لك .

(**وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**) قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا.

- **قال البغوي** : سمي تأويلاً ، لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه .
- **قال القرطبي** : وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا ، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها .
- **قال الشنقيطي** : بيّنَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ عَلَّمَ نَبِيَّهُ يُوسُفَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) .

وَقَوْلِهِ (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.

فذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ: تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا، فَالْأَحَادِيثُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ هِيَ الرُّؤْيَا .

وَكَانَ يُوسُفُ أَعْبَرَ النَّاسِ لِلرُّؤْيَا، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ الْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى خِبْرَتِهِ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، كَقَوْلِهِ (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) .

وَقَوْلِهِ (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ...) .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْمُرَادُ بِتَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ مَعْرِفَةُ مَعَانِي كُتُبِ اللَّهِ وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا غَمُضَ وَمَا اشْتَبَهَ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَغْرَاضِهَا وَمَقَاصِدِهَا، يُفَسِّرُهَا لَهُمْ وَيَشْرَحُهَا، وَيَدُلُّهُمْ عَلَى مُودَعَاتِ حِكَمِهَا.

وَسُمِّيَتْ أَحَادِيثَ ؛ لِأَنَّهَا يُحَدَّثُ بِهَا عَنِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، فَيُقَالُ: قَالَ اللَّهُ كَذَا، وَقَالَ رَسُولُهُ كَذَا .

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُون) .

وقوله (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) .

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) .

(**وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ**) بالنبوة والرسالة والملك والرياسة .

- **قال الشوكاني** : فيجمع لك بين النبوة والملك ، كما تدل عليه هذه الرؤيا التي أراك الله ، أو يجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة .

(**وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ**) وهم إخوته وذريتهم، بأن يسبغ عليهم الكثير من نعمه.

(**كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ**) أي : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت.

(**إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ**) فجعلهما نبيين .

- وقوله (إبراهيم وإسحاق) بيان لأبويه ، وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف، مع أن إبراهيم جد أبيه، وإسحاق جده، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام-، وللمبالغة في إدخال السرور على قلبه .

(**إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ**) من يصطفيه لحمل رسالته، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته .

(**حَكِيمٌ**) في صنعه وتصرفاته.

- **قال السعدي** : أي علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلا ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

أي : أن هذه النعم كائنة على وفق علمه وحكمته ، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل ، لأنه خلقها لقبول ذلك ، فعلمه بها سابق ، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة .

- **قال البغوي** : قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير.
- **قال الشوكاني** : وكان هذا كلام من يعقوب مع ولده يوسف تعبيراً لرؤياه على طريق الإجمال ، أو علم ذلك من طريق الوحي ، أو عرفه بطريق الفراسة وما تقتضيه المخايل اليوسفية .

الفوائد :

١-أن النبوة والاصطفاء لا تنال بالمجاهدة والتمني .

٢-بيان أفضال الله على آل إبراهيم بما أنعم عليهم فجعلهم أنبياء آباء وأحفاد .

٣-اطلاق اسم الأب على الجد .

٤-كان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا في زمانه .

٥-الصفات التي تختم بها الآيات لها مدلولات ترتبط بالسياق والسباق .

(**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧)**) .

[يوسف : ٧] .

(**لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ**) الآيات: جمع آية والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله تعالى ووجوب إخلاص العبادة له.

أي : لقد كان في قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات عظيمة، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة، وحكمته الباهرة، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، وعلى ما للحسد والبغي من شرور وخذلان.

(**لِّلسَّائِلِينَ**) أى: لمن يتوقع منهم السؤال، بقصد الانتفاع بما ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام.

أى: لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته، آيات عظيمة، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه.

- **قال الخازن** : ومعنى (آيات للسائلين) أي : عبرة للمعتبرين فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ، ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ، ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم من الحسد ، ومنها صبر يوسف على إخوته وبلواه مثل إلقائه في الجب وبيعه عبداً وسجنه بعد ذلك وما آل إليه أمره من الملك ، ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ.

وقال ابن الجوزي : ..في وجه هذه الآيات خمسة أقوال :

أحدها : الدلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم ، ولا نظر في الكتب .

والثاني : ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه .

والثالث : صدق رؤياه وصحة تأويله .

والرابع : ضبط نفسه وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة .

والخامس : حدوث السرور بعد اليأس .

- **قال البغوي** : قوله تعالى (لِلسَّائِلِينَ) وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام .

وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف، فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منها ، فهذا معنى قوله (آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) أي: دلالة على نبوة رسول الله ﷺ .

وقيل : آيات للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله (سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) .

وقيل : معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف، وما آل إليه أمرهم في الحسد ، وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها ، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق وفي السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات.

وهذا الافتتاح لتلك القصة، كفيل بتحريك الانتباه لما يلقى بعد ذلك منها، ومن تفصيل لأحداثها، وبيان لما جرى فيها.

- **وقال ابن عاشور** : ... ففي قصة يوسف عليه السّلام دلائل على ما للصّبر وحسن الطويّة من عواقب الخير والنصر ، أو على ما للحسد والإضرار بالنّاس من الخيبة والاندحار والهبوط.

وفيها من الدلائل على صدق النبي ﷺ ، وأنّ القرآن وحي من الله ، إذ جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلاّ أحْبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات.

وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أنّ هذا الكلام من صنع الله ألقاه إلى رسوله ﷺ معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.

- **قال السعدي** : أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبينات.

الفوائد :

١- أن في قصص القرآن أعظم العبر والآيات لمن وفقه الله للاعتبار .

٢- الحرص على فهم قصة يوسف وما وقع فيها من أحداث ، فإن ذلك يؤدي إلى تقوية الإيمان ، والوثوق بوعد الله ونصره .

٣- على المسلم القارئ للقرآن أن يلتمس وجه العبرة في القصص القرآني كله ، وبخاصة قصة نبي الله يوسف .

٤- في هذه القصة دلالة عظيمة على وحدانية الله ونبوة محمد وغير ذلك مما تضمنته القصة .

٥- السائلون هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر ، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات .

(إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)) .

[يوسف : ٨ – ١٠] .

(إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم، قبل أن ينفذوا جريمتهم.

والمراد بأخيه: أخوه من أبيه وأمه وهو «بنيامين» وكان أصغر من يوسف عليه السلام أما بقيتهم فكانوا إخوة له من أبيه فقط.

ولم يذكروه باسمه، للإشعار بأن محبة يعقوب له، من أسبابها كونه شقيقاً ليوسف، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد.

أي: قال إخوة يوسف وهم يتشاورون في المكر به: ليوسف وأخوه «بنيامين» أحب إلى قلب أبينا منا، مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخيه.

(إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) تذييل قصدوا به درء الخطأ عن أنفسهم فيما يفعلونه بيوسف وإلقائه على أبيه الذي فرق بينهم – في زعمهم– في المعاملة.

والمراد بالضلال هنا: عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء في موضعها الصحيح، وليس المراد به الضلال في العقيدة والدين.

أي: إن أبانا لفي خطأ ظاهر، حيث فضل في المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال الأشداء النافعين له القادرين على خدمته.

- **قال القرطبي:** لم يريدوا بقولهم (إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الضلال في الدين إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً ، بل أرادوا: إن أبانا لفي ذهاب عن وجه التدبير في إيثاره اثنين على عشرة، مع استوائهم في الانتساب إليه .
- **قال الشنقيطي** : الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة – إنما هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي.

ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب. فمنه بهذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم : (قَالُواْ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم) .

وقوله تعالى في نبينا ﷺ (وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى) أي لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي ، فهداك إليها وعلمكها بما أوحي إليك من هذا القرآن العظيم.

وليس المراد أولاد يعقوب الضلال في الدين ، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً ، وإنما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن إدراك الحقيقة ، وإنزال الأمر منزلته اللائقة به ، حيث آثر اثنين على عشرة ، مع أن العشرة أكثر نفعاً له ، وأقدر على القيام بشؤونه وتدبير أموره.

واعلم أن الضلال أطلق في القرآن إطلاقين آخرين :

أحدهما : الضلال في الدين ، اي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه. وهذا أشهر معانيه في القرآن. ومنه بهذا المعنى (غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم وَلاَ الضآلين) .

وقوله (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين) .

وقوله (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ) .

الثاني : إطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة من قول العرب : ضل السمن في الطعام ، إذا غاب فيه وهلك فيه ، ولذلك تسمي

العرب الدفن إضلالاً. لأنه تغيب في الأرض يؤول غلى استهلاك عظام الميت فيها ، لأنها تصير رميماً وتمتزج بالأرض. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى (وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض) .

ومن إطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) .أي غاب واضمحل.

- **قال الرازي** : إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات ، فلما كان يعقوب عليه السلام عالماً بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضاً الأسن والأعلم والأنفع أفضل ، فلم قلب هذه القضية ؟

والجواب : أنه عليه السلام ما فضلهما على سائر الأولاد إلا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذوراً فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم.

قال الخازن : ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير ، ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر إخوته .

- **وقال الآلوسي** : فالذي ينبغي أن يعول عليه أنه عليه السلام إنما أحبه أكثر منهم لما رأى فيه من مخايل الخير ما لم ير فيهم وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الامارات عنده ، ولا لوم على الوالد تفضيله بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك ، وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما تدخل تحت وسع البشر .

(**اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ**) أي : اقتلوا يوسف أو اقذفوا به في أرض بعيدة مجهولة حتى يموت، فإنكم إن فعلتم ذلك، خلصت لكم محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد، فيقبل عليكم بكليته، ويكون كل توجهه إليكم وحدكم، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف.

(**وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**) أي : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بسبب قتله أو طرحه في أرض بعيدة، قوما صالحين في دينكم، بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم، وصالحين في دنياكم بعد أن خلت من المنغصات التي كان يثيرها وجود يوسف بينكم.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (قَوْماً صَالِحِينَ) أي تائبين ؛ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيقبلها الله منكم .

وقيل : "صَالِحِينَ" أي يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل.

- **قال الخازن** : قوله تعالى (قوماً صالحين) يعني : تائبين فتوبوا إلى الله يعف عنكم فتكونوا قوماً صالحين وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل .
- **وقال السعدي** : فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله ، وإزالة لشناعته ، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.
- التوبة الأصل فيها أن تكون بعد الذنب ، أما التوبة التي تعد سلفاً ، فهي نوع من المكر والكيد الذي يزينه الشيطان ، وفيها عدة مفاسد :

أولاً : أن فيها تسويفاً بالتوبة .

ثانياً : أن فيها استصغار للمعصية واستخفاف بفعلها .

ثالثاً : أنها دافع للشر وتسويغه .

(**قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ**) فإن قتله أعظم إثما وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه :

(**وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**) بيان للرأي الذي اقترحه أحدهم، واستقر عليه أمرهم.

والجب : أي ظلمة البئر .

والسيارة: جمع سيار، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون في السير ليصلوا إلى مقصودهم.

والمعنى: قال قائل من إخوة يوسف أفزعه ما هم مقدمون عليه بشأن أخيهم الصغير:

لا تقتلوا يوسف، لأن قتله جرم عظيم، وبدلاً من ذلك ، ألقوه في قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم.

- **قال القرطبي** : السيّارة الجمع الذي يسيرون في الطريق للسفر ؛ وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطه من السيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربما لا يأذن لهم أبوهم ، وربما يطلع على قصدهم.
- **قال السعدي** : وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل .
- **قال محمد بن إسحاق** : اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل.
- **قال الشوكاني** : وفي هذا دليل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء ، فإن الأنبياء لا يجوز عليهم التواطؤ على القتل لمسلم ظلماً وبغياً.

وقيل : كانوا أنبياء ، وكان ذلك منهم زلة قدم ، وأوقعهم فيها التهاب نار الحسد في صدورهم واضطرام جمرات الغيظ في قلوبهم.

وردّ بأن الأنبياء معصومون عن مثل هذه المعصية الكبيرة المتبالغة في الكبر ، مع ما في ذلك من قطع الرحم وعقوق الوالد وافتراء الكذب.

وقيل : إنهم لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء ، بل صاروا أنبياء من بعد. (فتح القدير) .

الفوائد :

١-إن الميل القلبي أمر خارج عن نطاق البشر .

٢- وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل بينهم ، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض مما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه في الهوى .

٣- ذوو المصالح قد يجتمعون على هدف مشترك ولو كان فيه خطر وضرر .

٤- الحسود لا يسود .

فلما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له ، لم يرض سبحانه حتى أقامهم بين يدي يوسف وخروا له سجداً ، ليعلموا أن الحسود لا يسود .

٥-الحسد سبب لكثير من الشرور .

قال تعالى عن اليهود والنصارى (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ...) .

وكان من أسباب امتناع القرشيين من الإيمان ما ذكره تعالى بقوله (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ...) .

- **قال ابن تيمية** : ما خلا جسد من حسد .

٦-أن الإنسان إذا خضع لوسوسة الشيطان انحط إلى أسفل سافلين .

٧- الاقتصاد عند الانتقام، والاكتفاء بما حصل به الغرض دون إفراط، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن أبيهم ، وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه في غيابة الجب.

٨-التنافس على الظهور يؤدي إلى إضمار الشر والتخلص من الأقران .

و- الغيْرة تؤدي في نهايتها بالقتل ، فلا يؤذي الإنسان نفسه فقط بل يؤذي غيره . الخميس : ٢٩ / رمضان / ١٤٣٩هـ

(قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٥)).

[يوسف : ١١ – ١٥] .

(**قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ**) أي : قال إخوة يوسف لأبيهم- محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم-: يا أبانا «مالك لا تأمنا على يوسف» أيْ : أيّ شيء جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف في خروجه معنا .

(**وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**) والحال أننا له ناصحون، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص، والود الصادق.

- وفي ندائهم له بلفظ (يا أبانا) استمالة لقلبه، وتحريك لعطفه، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم.

والاستفهام في قولهم «مالك لا تأمنا..» للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم إخوته، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك في اصطحابه معهم ولكنها جميعا باءت بالفشل.

- **قال البقاعي** : قوله تعالى (إنا له لناصحون) والنصح دليل الأمانة وسببها ، ولهذا قرنا في قوله (ناصح أمين) .

والنصح : إخلاص العمل من فساد يتعمد ، وضده الغش .

- **قال الرازي** : اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول.
- **قال ابن عاشور** : ولعل يعقوب عليه السّلام كان لا يأذن ليوسف عليه السّلام بالخروج مع إخوته للرعي أو للسّبق خوفاً عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم ، ولم يكن يصرّح لهم بأنّه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزّلوه منزلة من لا يأمنهم ، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.
- **قال القرطبي** : قيل للحسن : أيحسِد المؤمن؟ قال : ما أنساك ببني يعقوب! ولهذا قيل : الأب جلاّب والأخ سلاّب ؛ فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الاحتيال.

وقالوا ليعقوب : "يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ" وقيل : لما تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلم الثاني عادوا إلى يعقوب عليه السلام وقالوا هذا القول.

وفيه دليل على أنهم سألوه قبل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتي.

(**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ**) الرتع والرتوع هو الاتساع في الملاذ والتنعم في العيش، يقال: رتع الإنسان في النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت .

(**وَيَلْعَبْ**) المراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السآمة، كالتسابق عن طريق العدو، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة.

(**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) كل الحفظ من أن يصيبه مكروه، أو يمسه سوء.

(**قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ**) لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين :

أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

- **قال ابن كثير** : أي: يشق علي مفارقتُهُ مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفَرْط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.

والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به.

وخص الذئب بالذكر لأن الأرض التي عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب.

- **قال ابن عاشور** : وإنّما ذكر يعقوب عليه السّلام أنّ ذهابهم به غَدا يحدث به حزناً مستقبلاً ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به لأنّ شأن الابن البار أن يتّقي ما يحزن أباه.
- **قال ابن عطية** : وإنما خاف يعقوب الذئب دون سواه ، وخصصه لأنه كان الحيوان العادي المنبت في القطر ، وروي أن يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد على يوسف.

(**وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ**) بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم، وقلة اهتمامكم برعايته وحفظه.

(**قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ**) أي: قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه، وإزالة الحزن والخوف عن نفسه: يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا، ونحن عصابة من الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته، إنا إذا في هذه الحالة لخاسرون خسارة عظيمة، نستحق بسببها عدم الصلاح لأي شيء نافع.

(**فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ**) أي: فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم، وذهبوا به في الغد إلى حيث يريدون، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به في قعر الجب، فعلوا به ما فعلوا من الأذى، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة.

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له إكراماً له ، وبسطاً وشرحًا لصدره ، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه، وقَبَّله ودعا له.
- **قال الآلوسي** : والروايات في كيفية إلقائه في الجب، وما قاله لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة، وقد تضمنت ما يلين له الصخر، لكن ليس فيها ما له سند يعول عليه .

(**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**) يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

- فقوله تعالى (**لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا**) فيه وجهان :

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجبّ تقوية لقلبه ، وتبشيراً له بالسلامة.

الثاني : أنه أوحي إليه بالذي يصنعون به ؛ فعلى هذا (يكون) الوحيُ قبل إلقائه في الجبّ إنذاراً له.

- **قال السعدي:** ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

(**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**) فيه وجهان :

أحدهما : لا يشعرون بأنه أخوهم يوسف ، قاله قتادة وابن جريج.

الثاني : لا يشعرون بوحي الله تعالى له ، أي : لم يعلموا أن الله أوحى إليه .

- **اختلف العلماء في قوله** (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) على قولين :

أحدهما : أن المراد منه الوحي والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين .

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغاً أو كان صبياً ، قال بعضهم : إنه كان في ذلك الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة ، وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام.

والقول الثاني : إن المراد من هذا الوحي الإلهام .

كما في قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى) وقوله (وأوحى رَبُّكَ إلى النحل) .

- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ) دليل على نبوّته في ذلك الوقت.

قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقَتادة : أعطاه الله النبوّة وهو في الجبّ على حجر مرتفع عن الماء.

وقيل : كان وحي إلهام كقوله (وأوحى رَبُّكَ إلى النحل) .

وقيل : كان مناماً .

والأوّل أظهر والله أعلم وأن جبريل جاءه بالوحي.

- وكان هذا الإيحاء- على الراجح- قبل أن يبلغ سن الحلم، وقبل أن يكون نبياً .

وكان المقصود منه، إدخال الطمأنينة على قلبه، وتبشيره بما يصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان.

- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أنه سينبئ إخوته بهذا الأمر الذي فعلوا به في حال كونهم لا يشعرون.

ثم صرح في هذه السورة الكريمة بأنه جل وعلا أنجز ذلك الوعد في قوله (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ). وصرح بعدم شعورهم بأنه يوسف في قوله (وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُون) .

الفوائد :

١- كلامُ الحسودِ لا يُسْمَع ، ووعدُه لا يُقْبل - وإنْ كانا في مَعْرِضِ النُّصحِ ؛ فإنَّهُ يُطْعِمُ الشَهْدَ ويَسْقِي الصَّابَ.

٢- إن صدق المؤمن يحمله على تصديق من يحلف له ويؤكد كلامه .

٣-كثرة الإلحاح على أمر دليل على شيء مجهول في النفس .

٤- لا حذر مع القدر .

٥-الحفظ يستلزم الرعاية والنصح .

٦-الأب يرتاح ويفرح لكل ما يعود على أولاده بالخير في دينهم أو أبدانهم .

٧- شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه .

٨-حكمة الله في ابتلاء عبده ليرفعه لأعلى الدرجات .

٩-الابتلاء بداية التمكين للمؤمن .

١٠-لطف الله بيوسف وإكرامه له بإعلامه إياه أنه سينبئ إخوته بفعلتهم .

(**وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ (١٦) قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)**) .

[يوسف : ١٦- ١٨]

(**وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ**) أي : لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب .

- **قال القرطبي** : وإنما جاؤوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة .
- **قال القاعي** : (عشاء) في ظلمة الليل لئلا يتفرس أبيهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النهار ضد ما جاؤوا به من الاعتذار ، وقد قيل : لا تطلب الحاجة بالليل فإن الحياء في العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

والآية دالة على أن البكاء لا يدل على الصدق لاحتمال التصنع .

(**قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ**) أي : نتسابق عن طريق الرمي بالسهام، أو على الخيل، أو على الأقدام. يقال: فلان وفلان استبقا أي : تسابقا حتى ينظر أيهما يسبق الآخر.

(**وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا**) أي : عند الأشياء التي نتمتع بها وننتفع في رحلتنا، كالثياب والأطعمة وما يشبه ذلك.

(**فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**) في تلك الفترة التي تركناه فيها عند متاعنا ، والمراد: قتله الذئب، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا ندفنه.

(**وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ**) يعني في قولنا ، والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولاً لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا في قولنا هذا ، وقيل معناه : إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا .

(**وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**) أي : جاؤوا على ثوبه بدم كذب .

- **قال ابن عطية** : روي أنهم أخذوا سخلة أو جدياً فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف ، وقالوا ليعقوب : هذا قميصه ، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى ، ثم تأمله فلم ير خرقاً ولا أثر ناب.

فاستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان الذئب حليماً ، يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ – قص هذا القصص ابن عباس وغيره ، وأجمعوا على أنه استدل على كذبهم لصحة القميص

- **قال الرازي** : إنما جاؤوا بهذا القميص الملطخ بالدم ليوهم كونهم صادقين في مقالتهم.

قيل : ذبحوا جدياً ولطخوا ذلك القميص بدمه.

- روي أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أخذ القميص منهم وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق قميصه .

(**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**) التسويل: التسهيل والتزيين. يقال: سولت لفلان نفسه هذا الفعل أي زينته وحسنته له، وصورته له في صورة الشيء الحسن مع أنه قبيح.

أي: قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا: قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هي التي زينت لكم أن تفعلوا معه فعلاً سيئاً قبيحاً ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربي ومشيئته.

(**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**) أي : أمري صبر جميل لا شكوى معه .

فالصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى.

قال مجاهد : فصبر جميل ، أي من غير جزع .

وقال الثوري : من الصبر أن لا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك .

وقال ابن الجوزي : وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ الشَّكْوَى إِلَى الْخَلْقِ، وَالشَّكْوَى وَإِنْ كَانَ فِيهَا رَاحَةٌ إِلا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وَذُلٍّ وَالصَّبْرُ عَنْهَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةٍ وَعِز .

قال ابن تيمية : والصبر الجميل صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه السلام (إنما أشكو بثي وحزني الى الله) مع قوله (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل .

- يقول أحد الشعراء الحكماء:

وَإِذَا عَرَاكِ بليةٌ فاصبِرْ لَهَا *** صَبْرَ الكريمِ فَإِنَّه بكَ أَعلـمُ

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ

قال عمر : ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تحزنَ صديقك، وتشمِّت عدوك .

وقال الأحنف : شكوت إلى عمي في بطني فنهرني، ثم قال: يا بن أخي لا تشكُ إلى أحدٍ ما نزل بك ، فإنما الناس رجلان ، صديق تسوءه بهذه الشكوى وتؤلمه، ، وعدو تسره .

قال ابن القيم : الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عَرَف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتَه وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدتَ على أن شكوتَ مَن يرحمك.

(**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**) أي : المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزية.

- **قال ابن عاشور** : وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسْعَ للكشف عن مصير يوسف عليه السلام لأنه علم تعذر ذلك عليه لكبر سنه ، ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك.

فائدة : قوله تعالى في أيوب (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) هذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه بئس العبد .

الفوائد :

١-أن العين تستحي من العين .

٢- أن البكاء ليس دليلاً على الصدق .

٣-أن الجرائم ترتكب غالباً في الليل وفي الظلام ، لتكون أدعى للستر .

٤-أن الكذب لا يخلو من دليل على بطلانه .

٥-في هذه الآية أن نبي الله يعقوب رغم المصيبة لكنه ضبط نفسه وحملها على ما يرضي الله من الصبر الجميل .

٦- إن من أخلاق الكبار إذا اشتد بهم الكرب والهم فإنهم يحرصون على الصبر الجميل الذي لا شكوى منه إلا إلى الله .

٧- حسن الثقة بالله وحسن الظن به تعالى ، فإنّ نبيّ الله يعقوب عليه السلام مع شدّة مصابه بفقد ولديْه – حتي ابيضّت عيناه من الحزن – لم يهنْ عزمه ، ولم تضعفْ ثقته في الله بأن يعيد إليه ما فقد (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم) .

٨- إن الكرام الصابرين يوقنون بأنّ مع الليل فجراً ، وأنّ مع العسر يسراً ، وأنّ مع الصبر نصراً ، وأنّه إذا انتهت كلمة البشر ،

فما انتهت كلمة الله ، وإذا غُلقت الأبواب فلن يّغلق بابُ السماء ، وإذا نفدت الأسباب فالأمل في ربِّ الأسباب ، وإذا انقطعت الحبال فإلي حبل الله القويّ المتين!

٩-أن التلبس بالصبر لا يكون إلا بمعونة الله .

١٠-النفس تسول وتزين وتسهل حتى الأمور العظام .

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)) .

[يوسف : ١٩- ٢٠] .

(**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ**) يعني رفقة تسير للسفر.

(**فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ**) وهو الذي يرد أمامهم الماء ليستقي لهم .

(**فَأَدْلَى دَلْوَهُ**) أي : أرسلها ليملأها ، يقال أدلاها إذا أرسل الدلو ليملأها ، ودلاّها إذا أخرجها ملأى.

- **قال قتادة** : فتعلق يوسف عليه السلام بالدلو حين أرسلت. والبئر ببيت المقدس معروف مكانها.

(**قَالَ**) أي : الوارد يعلم أصحابه بالبشرى .

(**يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ**) قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته .

- **قال أبو السعود** : كأنه نادى البشرى ، وقال تعالَيْ فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة .
- **قال ابن كثير** : زعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلما له أنه أصاب غلامًا. وهذا القول من السدي غريب؛ لأنه لم يُسبَق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: "يا نفسُ اصبري"، و"يا غلام أقبل"، بحذف حرف الإضافة .
- **قال الرازي** : واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاماً في غاية الحسن وقالوا : نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى.

(**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**) الضمير يعود إلى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه في الجب ، وذلك لأنهم قالوا : إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه ، وإن قلنا اشتريناه : سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر.

وهذا اختيار ابن جرير .

- **قال ابن كثير** : قوله (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضّعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. قاله مجاهد، والسدي، وابن جرير. هذا قول.

وقيل : (وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) يعني: إخوة يوسف ، أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه (يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) يباع، فباعه إخوته.

- **وقال أبو السعود** : قوله تعالى (وَأَسَرُّوهُ) أي : أخفاه الواردُ وأصحابُه عن بقية الرفقة .

وقيل : أخفَوا أمرَه ووجدانَهم له في الجب وقالوا لهم : دفعَه إلينا أهلُ الماء لنبيعه لهم بمصرَ .

وقيل : الضميرُ لإخوة يوسفَ وذلك أن يهوذا كان يأتيه كلَّ يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجدْه فيها فأخبر إخوتَه فأتَوا الرفقةَ وقالوا:

هذا غلامُنا أبَقَ منا فاشترَوه منهم وسكت يوسفُ مخافةَ أن يقتُلوه ولا يخفى ما فيه من البعد .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**) أي : والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حقّ في استرقاقه ، ومن كان حقّه أن يسألوا عن قومه ويبلغوه إليهم ، لأنهم قد علموا خبره ، أو كان من حقهم أن يسْألوه لأنه كان مستطيعاً أن يخبرهم بخبره.

- وفي عثور السيارة على الجب الذي فيه يوسف عليه السّلام آية من لطف الله به.

(**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ**) شَرَوْهُ هنا بمعنى باعوه.

اختلف المفسرون في هذه الآية :

فقيل : الضمير يعود على إخوة يوسف .

أي : إخوة يوسف باعوه على السيارة حين أخرجوه من الجب فادّعوه عبداً ، قاله ابن عباس والضحاك ومجاهد

وهذا اختيار ابن جرير .

قال ابن الجوزي : وهو قول الأكثرين .

- **قال السعدي** : والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.
- **قال ابن كثير** : قول تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعِكْرِمة.

والبخس: هو النقص ، كما قال تعالى (فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا) أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دُونٍ قليل، وكانوا مع ذلك فيه من الزاهدين، أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الضمير في قوله: (وَشَرَوْهُ) عائد على إخوة يوسف.

وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة.

والأول أقوى : لأن قوله (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فيرجح من هذا أن الضمير في (وَشَرَوْهُ) إنما هو لإخوته. (تفسير ابن كثير) .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وشروه بثمن بخسٍ) معنى شروه أي : باعوه .

واسم البيع والشراء يطلق على كل واحد من البائع والمشتري لأن كل واحد منهما بائع لما في يده مشتر لما في يد صاحبه.

وفي بائعه قولان :

أحدهما : أنهم إخوته باعوه على السيارة حين أخرجوه من الجب فادّعوه عبداً ، قاله ابن عباس والضحاك ومجاهد.

الثاني : أن السيارة باعوه عن ملك مصر ، قاله الحسن وقتادة.

- وَالْبَخْسُ : النَّاقِصُ ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) .
- **قال ابن كثير** : قيل: المراد بقوله: (بَخْسٍ) الحرام. وقيل: الظلم. وهذا وإن كان كذلك، لكن ليس هو المراد هنا؛ لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال، وعلى كل أحد، لأنه نبي ابن نبي ابن نبي، ابن خليل الرحمن، فهو الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي: إنهم إخوته، وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان؛ ولهذا قال (دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) فعن ابن مسعود باعوه بعشرين درهما، وكذا قال ابن عباس، ونَوْف البَكَالي، والسُّدِّي، وقتادة، وعطية العَوْفي وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.
- **قال ابن عاشور** : (معدودة) كناية عن كونها قليلة لأن الشيء القليل يسهل عدّه فإذا كثر صار تقديره بالوزن أو الكيل.

ويقال في الكناية عن الكثرة : لا يعدّ.

(**وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ**) أي : أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بأي شيء يبيعه أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم ، فلا جرم باعوه بأوكس الأثمان.

وعلى القول الآخر – أن الذي باعه إخوته – كانوا فيه من الزاهدين ، لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه ، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه .

- ومعنى الزهد قلة الرغبة، يقال زهد فلان في كذا إذا لم يرغب فيه، وأصله القلة.
- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين) قيل : المراد إخوته.

وقيل : السيارة.

وقيل : الواردة .

وعلى أي تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً ، لا عند الإخوة ؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا والزهد قلة الرغبة ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى.

الفوائد :

١- لما أراد اللهُ تعالى خلاصَ يوسف عليه السلام من الجُبِّ أزعج خواطر السّيارة في قصد السفر ، وأعدمهم الماءَ حتى احتاجوا إلى الاستقاء لِيَصِلَ يوسف عليه السلام إلى الخلاص ، ولهذا قيل : ألا رُبَّ تشويشٍ يقع في العَالَم ، والمقصودُ منه سكونُ واحدٍ. كما قيل : رُبَّ ساع له قاعد.

٢- تسلية للنبي ﷺ ولما يجري عليه من كفار قريش .

٣-أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب ، وأنه ينتظر للشدة .

٤-أن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره .

٥- عموم علم الله بكل شيء ، فالله له الحكمة البالغة فيما يجري ليوسف .

٦- أن الابتلاء يعقبه التمكين .

٧- أن البشرى قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة . وبالعكس.

٨-أن الأشياء الثمينة يكتمها صاحبها .

٩- إطلاق لفظ الشراء على البيع .

(**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)**) .

[يوسف : ٢١- ٢٢] .

قال ابن كثير : يخبر تعالى بألطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قيض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والفلاح .

(**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ**) وهو العزيز ملكها .

- وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها.

(**لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**) أي: وقال الرجل المصري الذي اشترى يوسف لامرأته: اجعلي محل إقامته كريماً ، وأنزليه منزلاً حسناً

مرضياً .

وهذا كناية عن وصيته لها بإكرامه على أبلغ وجه، لأن من أكرم المحل بتنظيفه وتهيئته تهيئة حسنة فقد أكرم صاحبه.

- **قال البقاعي** : قوله تعالى (أكرمي مثواه) أي: موضع مقامه، وذلك أعظم من الأمر بإكرامه نفسه، فالمعنى: أكرميه إكراماً عظيماً بحيث يكون ممن يكرم كل ما لابسه لأجله ، ليرغب في المقام عندنا.
- **وقال الرازي** : وقال المحققون : أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه ، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم .
- عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) والمرأة التي قالت لأبيها [عن موسى] (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ) وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب.

(**عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**) بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه.

أي : عسى هذا الغلام أن ينفعنا في قضاء مصالحنا، وفي مختلف شئوننا، أو نتبناه فيكون منا بمنزلة الولد، فإني أرى فيه علامات الرشد والنجابة، وأمارات الأدب وحسن الخلق.

- قالوا وهذه الجملة (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً) توحي بأنهما لم يكن عندهما أولاد.

(**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ**) أي : كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز ، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهي في أرض مصر.

(**وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**) وقد تقدم تفسير هذه الكلمة.

(**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**) أي : والله تعالى متمم ما قدره وأراده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا ينازعه منازع .

- **قال ابن كثير** : أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) أي : لا يدرون حكمته في خلقه، وتلطفه لما يريد ، لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا فضله

- والتعبير بقوله (وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) احتراس لإنصاف ومدح القلة من الناس الذين يعطيهم الله تعالى من فضله ما يجعلهم لا يندرجون في الكثرة التي لا تعلم، بل هو سبحانه يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم.

(**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**) أي: استكمل عقله وتم خلقه .

الأشد: قوة الإنسان، وبلوغه النهاية في ذلك، مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع .

وقد اختُلِف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون. وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثمانية عشرة سنة. وقال الإمام مالك، وربيعة، وزيد بن أسلم، والشعبي: الأشد الحلم. وقيل غير ذلك .

(**آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**) أي : أعطيناه بفضلنا وإحساننا (حُكْماً) أي : حكمة، وهي الإصابة في القول والعمل أو هي النبوة. (وعِلْماً) أي : فقها في الدين ، وفهماً سليماً لتفسير الرؤى، وإدراكاً واسعاً لشئون الدين والدنيا.

(**وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) أي : ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي المحسنين ، فكل من أحسن في عمله أحسن الله جزاءه . وجعل عاقبة الخير من جملة ما يجزيه به . وهذا عام يدخل تحته جزاء يوسف على صبره الحسن دخولاً أولياً .

ففي هذا فضل عظيم لكل محسن في عبادة الله وطاعته ، وبالإحسان إلى المخلوقين .

- **قال ابن عاشور** : وفي ذكر (المحسنين) إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة .
- **قال السعدي** (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان

إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا.

ودل هذا، على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

- ومن أعظم أسباب الإحسان : مراقبة الله وعلم العبد أن الله مطلع عليه .
- **قال الشنقيطي** : فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان ؟ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). (أضواء البيان).

فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا تقصير ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون .

والإحسان مع الله : بإتقان العمل إخلاصاً ومتابعة .

والإحسان إلى المخلوق : بإيصال النفع لهم والإحسان إليهم .

وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان ، فيدخل فيه الإحسان بالمال ، ويدخل فيه الإحسان بالجاه ، وبالشفاعة ونحو ذلك، وتعليم العلم النافع، وقضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شدائدهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم.

فالإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

- **قال السعدي** : وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي)
- فضائل الإحسان :

أولاً: أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه.

كما قال تعالى (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ).

وقال تعالى (وَأَحْسِنُوَا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

وقال تعالى (ويَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى).

ثانياً: لهم في الدنيا حسنة.

قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ).

ثالثاً: رحمة الله قريبة من المحسنين.

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ).

رابعاً: لهم الجنة ونعيمها.

قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ).

خامساً: تبشير المحسنين.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ).

سادساً: أن الله معهم.

قال تعالى (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).

سابعاً: إن الله يحب المحسنين.

قال تعالى (وَأَحْسِنُوَا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

ثامناً: إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

قال تعالى (إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

تاسعاً: الإحسان سبب في دخول الجنة.

قال تعالى (.. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ).

عاشراً: الكافر إذا رأى العذاب تمنى أن لو أحسن في الدنيا.

قال تعالى (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

- **قال ابن رجب:** قوله تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)، وقد ثبت في " صحيح مسلم " عنِ النَّبيِّ ﷺ تفسيرُ الزِّيادةِ بالنّظرِ إلى وجهِ الله – عز وجل – في الجنة، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عياناً في الآخرة، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفَّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)، وجعلَ ذلك جزاءً لحالهم في الدُّنيا، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة.
- **ولذلك جاء في الدعاء : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .**

وإحسان العمل —كما تقدم – اتقان العمل إخلاصاً ومتابعة .

قال ابن رجب : والحامل على ذلك أن يعبد العبد ربه كأنه يراه .

وعلم ﷺ معاذاً أن يقول (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وقد وصى ﷺ رجلاً أن يصلي صلاة مودع ، يعني يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى ، فيحمله على ذلك إتقانها وتكميلها وإحسانها .

وقد وردت أحاديث في فضائل الأعمال مقيدة بإحسان العمل .

كما في حديث أَبَي سَعِيدٍ الْخُدْرِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا) .

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا) متفق عليه .

وعن عثمان . قال : قال ﷺ (من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده ..) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن بسر قال . قال ﷺ (خير الناس من طال عمره وحسن عمله) رواه الترمذي .

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون مجرد الإكثار منه ، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع عدم الإتقان .

الفوائد :

١-من زهد بشيء باعه بأبخس الأثمان .

٢-الملتقط للشيء متهاون به .

٣-تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء .

٤- مِنَّة الله على يوسف أن جعله يتربى في بيت عز و ليس أن يكون ذليلا مهاناً ، لذا قال عزيز مصر لامرأته (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً...) .

٥-أن الشاب إذا نشأ في طاعة الله فان الله يؤتيه علماً و حكمةً . (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

٦-معرفة تعبير الرؤيا كرامة لمن علمه الله ذلك .

٧-التمكين في الأرض يسبقه التمكين في القلوب .

٨-حكمة الله يجهلها كثير من الناس .

٩- عظم منزلة الإحسان ، وأنه سبب لرحمة الله وتوفيقه .

١٠- الحث على الإحسان .

١١-العلم النافع من ثمرات الإحسان .

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣))

[يوسف : ٢٣] .

(**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ**) أي : أن امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته إلى نفسها ليواقعها .

- **قال ابن عطية** : " المراودة " الملاطفة في السوق إلى غرض ، وأكثر استعمال هذه اللفظة إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء .
- **وقال أبو حيان** : والمراودة الطلب برفق ولين القول .

(**وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ**) أي : أطبقتها وكانت سبعة لأن مثل هذا لفعل لا يكون إلا في ستر وخفية أو أنها أغفلتها لشدة خوفها .

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَغَلَّقَتِ الأبواب) والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد .
- **قال ابن كثير** : يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ، فامتنع أشـــد الامتناع .
- واعلم أن يوسف عليه السلام كان في غاية الجمال والحسن ، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال أيضاً إن زوجها كان عاجزاً .

قال المفسرون : وإنما جاء غلقت على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعته إلى نفسها.

(**وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**) وقد اختلف القراء في قراءة : (هَيْتَ لَكَ) فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: معناه: أنها تدعوه إلى نفسها ، أي هلم وأقبل .

وقرأ ذلك آخرون: "هِئتُ لك" بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك .

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة.

- **قال السعدي** : هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً ، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها ، وأما محنته بإخوته ، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً .

(**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ**) أي : أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه فيما دعوتني إليه .

(**إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**) أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي أي: منزلي وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله .

فقوله (إِنَّهُ رَبِّي ...) فيه قولان :

القول الأول : إن الضمير يعود إلى الله .

- **قال أبو حيان** : الضمير في (إنه) الأصح أنه يعود على الله تعالى أي : إن الله ربي أحسن مثواي إذ نجاني من الجب ، وأقامني في أحسن مقام .

القول الثاني : الضمير يعود على العزيز ، أي : إنه سيدي أحسن مثواي فلا أخونه .

قال ابن تيمية : قولُ يُوسُفَ ﷺ لَمَّا قَالَتْ لَهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ (هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) الْمُرَادُ بِرَبِّهِ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ هُنَا سَيِّدُهُ وَهُوَ زَوْجُهَا الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ الَّذِي قَالَ لِامْرَأَتِهِ (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) .

وهذا الراجح .

- لماذا علل يوسف بحق الزوج ولم يعلل بقوله : إنه زنا .

قال ابن تيمية : ... عَلَّلَ يُوسُفُ ذَلِكَ بِحَقِّ الزَّوْجِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْ الْأَمْرَيْنِ مَانِعًا لَهُ وَكَانَ فِي تَعْلِيلِهِ بِحَقِّ الزَّوْجِ فَوَائِد .

مِنْهَا : أَنَّ هَذَا مَانِعٌ تَعْرِفُهُ الْمَرْأَةُ وَتَعْذُرُهُ بِهِ بِخِلَافِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا لَا تَعْرِفُ عُقُوبَةَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ.

ومنها : أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَرْتَدِعُ بِذَلِكَ فَتَرْعَى حَقَّ زَوْجِهَا إمَّا خَوْفًا وَإِمَّا رِعَايَةً لِحَقِّهِ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ الْمَمْلُوكُ يَمْتَنِعُ عَنْ هَذَا رِعَايَةً لِحَقِّ سَيِّدِهِ فَالْمَرْأَةُ أَوْلَى بِذَلِكَ لِأَنَّهَا خَائِنَةٌ فِي نَفْسِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا بِخِلَافِ الْمَمْلُوكِ فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ الْخِدْمَةُ وَفَاحِشَتُهُ بِمَنْزِلَةِ سَرِقَةِ الْمَرْأَةِ مِنْ مَالِهِ.

ومنها : أَنَّ هَذَا مَانِعٌ مُؤَيِّسٌ لَهَا فَلَا تَطْمَعُ فِيهِ لَا بِنِكَاحِ وَلَا بِسِفَاحِ بِخِلَافِ الْخَلِيَّةِ مِنْ الزَّوْجِ فَإِنَّهَا تَطْمَعُ فِيهِ بِنِكَاحِ حَلَالٍ .

ومنها : أَنَّهُ لَوْ عَلَّلَ بِالزِّنَا فَقَدْ تَسْعَى هِيَ فِي فِرَاقِ الزَّوْجِ وَالتَّزَوُّجِ بِهِ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَحْرُمُ لِحَقِّ الزَّوْجِ خَاصَّةً ، فَلَوْ عَلَّلَ بِأَنَّ هَذَا زِنًا مُحَرَّمٌ رُبَّمَا طَمِعَتْ فِي أَنْ تُفَارِقَ الزَّوْجَ وَتَتَزَوَّجَهُ ، فَإِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ ؛ وَقَدْ جَرَى مِثْلُ هَذَا. فَلَمَّا عَلَّلَ بِحَقِّ سَيِّدِهِ وَقَالَ (إنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) يَئِسَتْ مِنْ ذَلِكَ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ يُرَاعِي حَقَّ الزَّوْجِ فَلَا يُرَاجِمُهُ فِي امْرَأَتِهِ أَلْبَتَّة .

(**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضي وضع الشيء في غير موضعه .

قال ابن تيمية : يَقُولُ : مَتَى أَفْسَدْت امْرَأَتَهُ كُنْت ظَالِمًا بِكُلِّ حَالٍ وَلَيْسَ هَذَا جَزَاءَ إحْسَانِهِ إلَيَّ. وَالنَّاسُ إذَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ

وَالْعُدْوَانِ أَبْغَضَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوهُ بِتَرَاضِيهِمْ .

قال ابن القيم : ... ولذلك كان صبر يوسف الصديق عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله في ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه في الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع العبد .

وقال رحمه الله : وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق من العفاف أعظم ما يكون فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره ، وذلك من وجوه :

أحدها: ما ركّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام ، حتى إنّ كثيرًا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يُذَمّ إذا صادف حِلًّا بل يحمد .

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابًّا ، وشهوة الشباب وحدّته أقوى.

الثالث : أنه كان عَزَبًا ليس له زوجة ولا سُرِّيّة تكسر شدّة الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غُربةٍ يتأتّى للغريب فيها من قضاء الوطر مالًا يتأتّى له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس : أنّ المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث إنّ كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا آبية ، فإنّ كثيرًا من الناس يزيل رغبتَه في المرأة إباؤها وامتناعها، يجد في نفسه من ذلّ الخضوع والسؤال لها.

السابع : أنّها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد، فكفتْه مؤنة الطلب وذلَّ الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنّه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع : أنّه لا يخشى أن تنُمّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنّها هي الطالبة والراغبة، وقد غلَّقت الأبواب، وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنّه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكَر عليه، فكان الإنس سابقًا على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب : ما حملكِ على الزنى؟ قالت : قُربُ الوِساد، وطول السواد ، تعني قرب وساد الرجل من وسادي ، وطول السِّواد بيننا.

الحادي عشر: أنّها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إيّاهنّ، وشكت حالها إليهنّ، لتستعين بهنّ عليه؛ فاستعان هو بالله عليهن، فقال (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

الثاني عشر: أنها تواعدته بالسجن والصَّغار ، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظنّ وقوعُ ما هدَّد به، فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أنّ الزوج لم يظهر منه من الغيرة والنخوة ما يفرّق به بينهما، ويبعد كلاًّ منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلهما به أن قال ليوسف (أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) وللمرأة (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وشدة الغيرة في الرجل من أقوى الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلّها، فآثر مرضاةَ الله وخوفَه، وحمله حبُّه لله على أن اختار السجن على الزنى، فقال (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي) وعلم أنّه لا يطيق صرفَ ذلك عن نفسه، وأنّ ربّه تعالى إنْ لم يعصمْه ويصرِفْه عنه صبأ إليهنّ بطبعه، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربّه وبنفسه.

الفوائد :

١- أن الله جعل الناس بعضهم فتنة لبعض ، فالمرأة فتنة الرجل ، والرجل فتنة المرأة .

٢- أن المرأة إذا دعت الرجل إلى الحرام غير إذا دعا الرجل المرأة للحرام ، لأنها إذا دعت الرجل إلى الحرام أزالت الحواجز النفسية فالرجل يخشى إذا دعا المرأة إلى الحرام أن ترفض أو تستنجد بأهلها لكن إذا المرأة دعته للحرام...، ولذلك قال ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ..) لماذا ؟ لأن الحرام صار سهل لأنها هي التي دعته .

٣- خطورة خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية .

عن ابن عباس قال سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ (لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِاِمْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ، وَلَا تُسَافِرُ اَلْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ "فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، إِنَّ اِمْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اِكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: اِنْطَلِقْ، فَحُجَّ مَعَ اِمْرَأَتِكَ) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

وعن عقبة بن عَامِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ الْحَمْوُ الْمَوْت) رواه مسلم .

قال الإمام النووي في "شرح صحيح مسلم": قَالَ اللَّيْث بْن سَعْد : الْحَمو أَخُو الزَّوْج ، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ أَقَارِب الزَّوْج : اِبْن الْعَمّ وَنَحْوه . اِتَّفَقَ أَهْل اللُّغَة عَلَى أَنَّ الْأَحْمَاء أَقَارِب زَوْج الْمَرْأَة كَأَبِيهِ، وَأَخِيهِ، وَابْن أَخِيهِ، وَابْن عَمّه، وَنَحْوهمْ. وَالْأُخْتَانِ أَقَارِب زَوْجَة الرَّجُل . وَالْأَصْهَار يَقَع عَلَى النَّوْعَيْنِ. وَأَمَّا قَوْله ﷺ (الْحَمو الْمَوْت) فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْخَوْف مِنْهُ أَكْثَر مِنْ غَيْره، وَالشَّرّ يُتَوَقَّع مِنْهُ، وَالْفِتْنَة أَكْثَر لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْوُصُول إِلَى الْمَرْأَة وَالْخَلْوَة مِنْ غَيْر أَنْ يُنْكَر عَلَيْهِ ,بِخِلَافِ الْأَجْنَبِيّ. وَالْمُرَاد بِالْحَمْوِ هُنَا أَقَارِب الزَّوْج غَيْر آبَائِهِ وَأَبْنَائِهِ. فَأَمَّا الْآبَاء وَالْأَبْنَاء فَمَحَارِم لِزَوْجَتِهِ تَجُوز لَهُمْ الْخَلْوَة بِهَا، وَلَا يُوصَفُونَ بِالْمَوْتِ، وَإِنَّمَا الْمُرَاد الْأَخ، وَابْن الْأَخ، وَالْعَمّ، وَابْنه، وَنَحْوهمْ مِمَّنْ لَيْسَ بِمَحْرَمٍ. وَعَادَة النَّاس الْمُسَاهَلَة فِيهِ، وَيَخْلُو بِامْرَأَةِ أَخِيهِ، فَهَذَا هُوَ الْمَوْت، وَهُوَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ مِنْ الْأَجْنَبِيّ لِمَا ذَكَرْنَاهُ. فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْته هُوَ صَوَاب مَعْنَى الْحَدِيث .

وعن جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس لها محرم فإن ثالثهما الشيطان). رواه مسلم

في هذا الحديث بيان أن من مقتضى الإيمان عدم الخلوة بالأجنبية، لاسيما وأن في الخلوة مشاركة للشيطان في هذا الاجتماع، وهو لا يوجد إلا ليوقع في الحرام، مما يدل على حرمة الخلوة بالمرأة الأجنبية.

وعنه . قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَلاَ لاَ يَبِيتَنَّ رَجُلٌ عِنْدَ امْرَأَةٍ ثَيِّبٍ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نَاكِحاً أَوْ ذَا مَحْرَم) رواه مسلم .

ففي هذا الحديث نهى عن المبيت عند امرأة أجنبية والمبيت يقتضي الخلوة مما يدل على حرمة الخلوة بالأجنبية.

- هل هذه الحرمة مقيدة بقيد أو مطلقة ؟

هذه الحرمة مطلقة ، سواء أمنت الفتنة أم لم تؤمن، وسواء وجدت العدالة أو لم توجد .

قال ابن القيم : وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنْ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ : أَصْلُ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ نُزُولِ الْعُقُوبَاتِ الْعَامَّةِ ، كَمَا أَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ فَسَادِ أُمُورِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَاخْتِلَاطُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ سَبَبٌ لِكَثْرَةِ الْفَوَاحِشِ وَالزِّنَا ، وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ الْعَامِّ ، وَالطَّوَاعِينِ الْمُتَّصِلَةِ

وقال ابن تيمية : الرِّجال إذا اختلطوا بالنساء كان بِمَنْزِلة اختلاط النار والحطب."

٤-أن الواجب عند الدعاء إلى المعصية الاستعاذة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .

٥- أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال : التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب .

٦-لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخل بالمكافأة عليه كان ظالماً .

٧- وقد جرت سنة الله في خلقه: أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرة التامة.(ابن القيم) ٥/١١/١٤٣٩هـ

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)) .

[يوسف : ٢٤] .

(**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ**) قال القرطبي : اختلف العلماء في همه. ولا خلاف أن همها كان المعصية .

قال ابن الجوزي : فأما همّ زليخا ، فقال المفسرون : دعته إلى نفسها واستلقت له .

وقد أجمع العلماء على أن همّ امرأة العزيز بيوسف كان هما بمعصية، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد، بدليل المراودة وتغليق الأبواب، وقولها : هيت لك .

- **قال الشنقيطي** : ... بِخِلَافِ هَمِّ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، فَإِنَّهُ هَمُّ عَزْمٍ وَتَصْمِيمٍ، بِدَلِيلِ أَنَّهَا شَقَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَهُوَ هَارِبٌ عَنْهَا، وَلَمْ يَمْنَعْهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي إِلَّا عَجْزُهَا عَنْهُ.

وَمِثْلُ هَذَا التَّصْمِيمِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ يُؤَاخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا، بِدَلِيلِ الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْنَا الْقَاتِلَ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» ، فَصَرَّحَ ﷺ بِأَنَّ تَصْمِيمَ عَزْمِهِ عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ مَعْصِيَةٌ أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِسَبَبِهَا النَّارَ. (أضواء البيان)

(**وَهَمَّ بِهَا**) اختلف العلماء في همّ يوسف على أقوال كثيرة :

وأرجح هذه الأقوال أن المراد به خطرات القلب ، وهذا لا يسلم منه أحد ، فتركه لله فأثابه الله .

وَمِثَالُ هَذَا مَيْلُ الصَّائِمِ بِطَبْعِهِ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ، مَعَ أَنَّ تَقْوَاهُ تَمْنَعُهُ مِنَ الشُّرْبِ وَهُوَ صَائِمٌ .

- **قال ابن القيم** : ... الصواب أن همّه كان همّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه ، وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمان .

قال الإمام أحمد بن حنبل: الهم همان هم خطرات وهم إصرار فهم الخطرات لا يؤاخذ به وهم الإصرار يؤاخذ به. (روضة المحبين)

- **قال ابن الجوزي** : ... أنه كان من جنس همّها ، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل .

وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدي .

وهو قول عامة المفسرين المتقدمين ، واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير ، وابن الأنباري .

واحتجَ منْ نصر هذا القول بأنه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر .

قالوا : ورجوعه عما همّ به من ذلك خوفاً من الله تعالى يمحو عنه سيء الهمّ ، ويوجب له علوَّ المنازل .

ففي الحديث الصحيح (انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نفر مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجبلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا الله تعالى بصالح أَعْمَالكُمْ ... قال أحدهم : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانتْ لِيَ ابْنَةُ عمٍّ كانتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ » وفي رواية : « كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشد مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءِ ، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُها عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ففَعَلَت ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا » وفي رواية : « فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا ، قَالَتْ : اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذي أَعْطَيْتُهَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعْلتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فانفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ...) . (زاد المسير) .

وَقَدْ قَالَ ﷺ (وهَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) وفي رواية (إنما تركها من جراي) لِأَنَّهُ تَرَكَ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بِالطَّبْعِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

وَهَمُّ بَنِي حَارِثَةَ وَبَنِي سَلَمَةَ بِالْفِرَارِ يَوْمَ أُحُدٍ، كَهَمِّ يُوسُفَ هَذَا ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا) لِأَنَّ قَوْلَهُ: وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْهَمَّ لَيْسَ مَعْصِيَةً؛ لِأَنَّ إِتْبَاعَ الْمَعْصِيَةِ بِوَلَايَةِ اللَّهِ لِذَلِكَ الْعَاصِي إِغْرَاءٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. (أضواء البيان)

- **قال ابن تيمية** : ... ولهذا لما لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز دل على أن يوسف لم يذنب أصلاً في تلك القصة كما يذكر من يذكر أشياء نزهه الله منها بقول تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) وقد قال تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) والهمّ كما قال الإمام أحمد رضي الله عنه همّان :

هم خطرات ، وهم إصرار .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال (إن الله تعالى يقول إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة كاملة فإن عملها فاكتبوها عشرا إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جراي) فيوسف عليه السلام لما همّ ترك همه لله، فكتب الله به حسنة كاملة ولم يكتب عليه سيئة قط، بخلاف امرأة العزيز فإنها همت، وقالت، وفعلت فراودته بفعلها وكذبت عليه عند سيدها واستعانت بالنسوة وحبسته لما اعتصم وامتنع عن الموافقة على الذنب. (جامع الرسايل)

وقال رحمه الله: فَالْهَمُّ اسْمُ جِنْسٍ تَحْتَهُ "نَوْعَانِ" كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد الْهَمُّ هَمَّانِ: هَمُّ خَطَرَاتٍ وَهَمُّ إصْرَارٍ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّ الْعَبْدَ إذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ وَإِذَا تَرَكَهَا لِلَّهِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْرُكَهَا لِلَّهِ لَمْ تُكْتَبْ لَهُ حَسَنَةً وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ سَيِّئَةً وَيُوسُفُ ﷺ هَمَّ هَمًّا تَرَكَهُ لِلَّهِ وَلِذَلِكَ صَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ لِإِخْلَاصِه . (مجموع الفتاوى) .

- **إن قيل** : فقد سوّى القرآن بين الهمتين ، فلم فرقتم؟

فالجواب : أن الاستواء وقع في بداية الهمة ، ثم ترقت همتها إلى العزيمة ، بدليل مراودتها واستلقائها بين يديه ، ولم تتعد همته مقامها ، بل نزلت عن رتبتها ، وانحل معقودها ، بدليل هربه منها ، وقولِه : «معاذ الله» .

- وقد بيّن القرآن براءته عليه السلام مِنَ الْوُقُوعِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي حَيْثُ بَيَّنَ شَهَادَةَ كُلِّ مَنْ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالْمَسْأَلَةِ بِبَرَاءَتِهِ، وَشَهَادَةَ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ وَاعْتِرَافَ إِبْلِيسَ بِهِ.

أَمَّا جَزْمُ يُوسُفَ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ فَذَكَرَهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) وَقَوْلِهِ (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) .

وَأَمَّا اعْتِرَافُ الْمَرْأَةِ بِذَلِكَ فَفِي قَوْلِهَا لِلنِّسْوَةِ (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) .

وَقَوْلِهَا (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) .

وَأَمَّا اعْتِرَافُ زَوْجِ الْمَرْأَةِ فَفِي قَوْلِهِ (قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) .

وَأَمَّا اعْتِرَافُ الشُّهُودِ بِذَلِكَ فَفِي قَوْلِهِ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) .

وَأَمَّا شَهَادَةُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِبَرَاءَتِهِ فَفِي قَوْلِهِ (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

أقوال أخرى قيلت في المسألة :

قيل : أنها همت به أن يفترشها ، وهمّ بها ، أي : تمنَّاها أن تكون له زوجة .

وقيل : همّ بالفرار منها .

وقيل : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، فلما رأى البرهان ، لم يقع منه الهم ، فقُدِّم جواب «لولا» عليها ، كما يقال : قد كنتَ من الهالكين ، لولا أن فلاناً خلَّصك ، لكنت من الهالكين .

(**لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**) في هذا البرهان أقوال :

قيل : مُثّل له يعقوب .

رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاضّاً على أنامله ، فأدبر هارباً ، وقال : وحقِّك يا أبت لا أعود أبداً .

وقيل : مثّل له جبريل في صورة يعقوب في سقف البيت عاضًّا على إبهامه أو بعض أصابعه .

وقيل : إنه جبريل عليه السلام .

وقيل : أن الله بعث إليه ملكاً ، فكتب في وجه المرأة بالدم : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

وقيل : أنه سيّدُه العزيز دنا من الباب .

والصحيح : أن المراد بالبرهان : ما غرسه الله تعالى في قلبه من العلم المصحوب بالعمل، بأن هذا الفعل الذي دعته إليه امرأة العزيز قبيح، ولا يليق به.

أو هو– كما يقول ابن جرير– رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان همّ به.

- **قال ابن جرير** : وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَخْبَرَ عَنْ هَمِّ يُوسُفَ ، وَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، لَوْلاَ أَنْ رَأَى يُوسُفُ بُرْهَانَ رَبِّهِ ، وَذَلِكَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، زَجَرَتْهُ عَنْ رُكُوبِ مَا هَمَّ بِهِ يُوسُفُ مِنَ الْفَاحِشَةِ . وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الآيَةُ صُورَةُ يَعْقُوبَ ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ صُورَةَ الْمَلِكِ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْوَعِيدُ فِي الآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الزِّنَا ، وَلاَ حُجَّةَ لِلْعُذْرِ قَاطِعَةً بِأَيِّ ذَلِكَ مِنْ أَيٍّ.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ فِي ذَلِكَ مَا قَالَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَالإِيمَانُ بِهِ ، وَتَرْكُ مَا عَدَا ذَلِكَ إِلَى عَالِمِهِ . (تفسير الطبري) .

- **قال القرطبي** : وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوي إيمانه ، وامتنع عن المعصية.

(**كَذَلِكَ**) أي : كذلك أريناه البرهان .

(**لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء**) السوء : وهو خيانة صاحبه (والفحشاءَ) ركوبَ الفاحشة .

وقيل : السوء مقدمات الفحشاء ، وقيل السوء الثناء القبيح .

(**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**) قرئ بفتح اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله. أ هـ (تفسير الخازن)

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بكسر اللام ، والمعنى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بفتح اللام ، أرادوا : من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش .

الفوائد :

١–فضل من ترك المعصية مع قدرته عليها ، وهذه من أعلى درجات الإيمان .

وفي الحديث (... وإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً). مُتَّفَقٌ عليهِ .

فمن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي) .

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله ، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة .

- **قال ابن رجب** : ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه ، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً .

فأما الأول : فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..... فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قال بعض السلف : أخفوا لله العمل فأخفى لهم الجزاء .

وفي حديث السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه

وأما الثاني : فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله) .

٢- فضل الإخلاص ، وأنه من أعظم أسباب صرف الفتنة عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل.

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

- **قال ابن تيمية** في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

وبه تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٩٨/١٠) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله ، وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد ، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو (إخلاصهم لله) فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين .

وهو سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

قال ابن القيم : قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج ويوسف عليه السلام لما كان مخلصا لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شابا عزبا غريباً مملوكاً .

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط وعن امرأة العزيز وكانت إذ ذاك مشركة فكلما قوى شرك العبد بلى بعشق الصور وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه

وقال رحمه الله : ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبته بعشق الصور أشد وكلما كان أكثر إخلاصا وأشد توحيدا كان أبعد من عشق الصور ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام بإخلاصه قال تعالى : كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين فالسوء : العشق والفحشاء : الزنا فالمخلص قد خلص حبه لله فخلصه الله من فتنة عشق الصور والمشرك قلبه متعلق بغير الله لم يخلص توحيده وحبه لله عز و جل .

وعبادة السر من أجل الطاعات ، لأنها مبنية على حسن المراقبة لله والإخلاص المحض واليقين التام وعدم التفات القلب للمخلوقين وثوابهم .

ولذلك أثنى الله عز وجل على صدقة السر فقال: (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِي وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير) .

وجاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وكان من دعاء النبي ﷺ (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

أن العبد يخشى الله سراً وعلانية ، ظاهراً وباطناً ، فإن أكثر الناس قد يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن خشية الله في الغيب إذا غاب عن أعين الناس فقد مدح الله من خافه بالغيب .

- **قال ابن تيمية** : قالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ . (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) . فَاَللَّهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنْ الْمَيْلِ إلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ .

وقال : وَهَذَا إنَّمَا يُبْتَلَى بِهِ أَهْلُ الْإِعْرَاضِ عَنْ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ الَّذِينَ فِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ وَإِلَّا فَأَهْلُ الْإِخْلَاصِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ عليه السلام (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ كَانَتْ مُشْرِكَةً فَوَقَعَتْ مَعَ تَزَوُّجِهَا فِيمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ السُّوءِ وَيُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ عُزُوبَتِهِ وَمُرَاوَدَتِهَا لَهُ وَاسْتِعَانَتِهَا عَلَيْهِ بِالنِّسْوَةِ وَعُقُوبَتِهَا لَهُ بِالْحَبْسِ عَلَى الْعِفَّةِ : عَصَمَهُ اللَّهُ بِإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ : (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) قَالَ تَعَالَى : (إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) و" الْغَيُّ " هُوَ اتِّبَاعُ الْهَوَى .

٣- بيان حسن عاقبة المتقين .

٤-خطر فتنة المرأة بالنسبة للرجل .

٥- خطر انفراد الرجل بالمرأة والخلوة بها .

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)) .

[٢٥- ٢٩] .

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) الاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب.

ووجه تسابقهما: أن يوسف عليه السلام أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التي طلبتها منه. وهي أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه.

(وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ) القد: القطع والشق، وأكثر استعماله في الشق والقطع الذي يكون طولا، وهو المراد هنا، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجري أمامها فانخرق القميص إلى أسفله.

(وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) أي : واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهي في إثره ، وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذي تسابقا

للوصول إليه.

فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها:

(**قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا**) أي : فاحشة .

(**إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ**) أي : يحبس .

(**أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي: يضرب ضرباً شديدًا موجعاً .

- وهذه الجملة الكريمة التي حكاها القرآن الكريم عنها، تدل على أن تلك المرأة كانت في نهاية المكر والدهاء والتحكم في إرادة زوجها .

(**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي**) أي: قال يوسف مدافعاً عن نفسه: إني ما أردت بها سوءاً كما تزعم وإنما هي التي بالغت في ترغيبي وإغرائي بارتكاب ما لا يليق معها.

(**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا**) سخر ؟؟؟ في تلك اللحظة الحرجة، من يدلي بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز. **(الظاهر: الله)**

قال العلماء : وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة .

واختلف العلماء في المراد بهذا الشاهد .

قال الشنقيطي : واخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الشَّاهِدِ فِي قَوْلِهِ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) .

فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هُوَ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ .

وَمِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّهُ رَجُلٌ ذُو لِحْيَةٍ ، وَنَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُ ابْنُ عَمٍّ لَهَا كَانَ حَكِيمًا ، وَنَحْوُهُ عَنْ قَتَادَةَ ، وَعِكْرِمَةَ .

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ لَيْسَ بِإِنْسِيٍّ ، وَلَا جَانٍّ ، هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ .

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ : قَوْلُ مُجَاهِدٍ هَذَا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (مِنْ أَهْلِهَا) لِأَنَّهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ إِنْسِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ .

وَأَظْهَرُ الْأَقْوَالِ : أَنَّهُ صَبِيٌّ .

لحديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ : ابْنُ مَاشِطَةِ فِرْعَوْنَ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) رواه أحمد . (أضواء البيان) .

- **وقال الشوكاني** : فقيل : كان صبياً في المهد .

ويؤيدها حديث (تكلم في المهد أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم).

وقيل : كان ابن عمّ لها واقفاً مع العزيز في الباب .

وقيل : ابن خال لها .

وقيل : إنه رجل حكيم كان العزيز يستشيره في أموره ، وكان من قرابة المرأة .

(**إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ**) أي : من أمام .

(**فَصَدَقَتْ**) أي : أنه أراد بها سوءاً، لأن ذلك يدل على أنها دافعته من الأمام وهو يريد الاعتداء عليها.

(**وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**) في قوله : هي راودتني عن نفسي .

(**وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ**) أي : من خلف .

(**فَكَذَبَتْ**) أي : في دعواها على أنه أراد بها سوءاً، لأن ذلك يدل على أنه حاول الهرب منها، فتعقبته حتى الباب، وأمسكت

به من الخلف .

(**وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) في دعواه أنها راودته عن نفسه.

(**فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ**) أي: فلما تحقق زوجها صدقَ يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به .

(**قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ**) أي : إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة .

(**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**) قال القرطبي : وإنما قال (عظيم) لعظم فتنتهن واحتيالهن في التخلص من ورطتهن .

(**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**) ثم قال آمراً ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع: يا (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) أي: اضرب عن هذا الأمر صفحاً ، فلا تذكره لأحد .

(**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ**) أي: الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قَذْفه بما هو بريء منه، استغفري من هذا الذي وقع منك .

(**إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**) أي : من القوم المتعمدين للذنب .

- وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانته ، وتدنيس فراشه بالإثم والفجور .
- **قال ابن كثير** : وقد كان (زوجها) لين العريكة سهلاً أو أنه عذرها ، لأنها رأت ما لا صبر لها عنه .

جاء في التفسير الوسيط : وهكذا نجد هذا الرجل- صاحب المنصب الكبير- يعالج الجريمة التي تثور لها الدماء في العروق، وتستلزم حسماً وحزماً في الأحكام، بهذا الأسلوب الهادئ البارد، شأن المترفين في كل زمان ومكان، الذين يهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها، فهو يلوم امرأته لوماً خفيفاً يشبه المدح، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة.. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هي عليه من بقاء يوسف معها في بيتها .

الفوائد :

١- وجوب الهروب من الفتن ، وأن من أعظم أسباب النجاة من الفتن الهروب والفرار منها والابتعاد عنها .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ) .

وفرار الإنسان بدينه من الفتن من الإيمان .

وقد مدح الله من فر بدينه :

قال تعالى (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) .

وقال تعالى (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً . وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً) .

وقال ﷺ (من سمع بالدجال فلينأ عنه) رواه أبو داود .

قال ابن القيم : فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه .

ب- وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (سَتَكُونُ فِتَنٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، وَمَنَ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذاً فَلْيَعُذْ بِه) متفق عليه .

ج- عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ، قَالَ : ايْمُ اللهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ ، وَلَمَن ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهاً) رواه أبو داود .

د- وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، قَالَ (بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ ، فَقَالَ : إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ

مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ ، وَكَانُوا هَكَذَا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ، قَالَ : فَقُمْتُ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ قَالَ : الْزَمْ بَيْتَكَ ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّة) رواه أبو داود .

٢-الحق والباطل دائماً في صراع .

٣-مشروعية الدفاع عن النفس .

٤-للحق والصدق أمارات يعرف بها .

٥-من الفراسة الاستدلال بالأمارات وشواهد الحال .

٦-أن الكيد والمكر من صفات الضعفاء .

٧-ضعف الغيرة في أصحاب القصور والطبقات المترفة .

٨-خطر الترف .

٩- هَمّ الملوك هو المحافظة على الظواهر .

١٠-فساد أخلاق الرجل مدعاة لفساد أهل بيته . ٢٢ / ١١ / ١٤٣٩هـ

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)) .

[يوسف : ٣٠- ٣٤] .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به : فقال تعالى :

(**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ**) أي : وقال نسوة من نساء مدينة مصر- على سبيل النقد والتشهير والتعجب- إن امرأة العزيز، صاحبة المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة، بلغ بها الحال في انقيادها لهواها، وفي خروجها عن طريق العفة.. أنها تراود فتاها عن نفسه، أي: تطلب منه مواقعتها، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل.

- قوله تعالى (وَقَالَ نِسْوَةٌ ..) **قيل**: مثل نساء الأمراء و الكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعبن ذلك عليها .

وقيل : وهي امرأة ساقي العزيز وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه .

لكن الواقع : أن القرآن لم يبين لنا عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع، ولأن الذي يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز، قد شاع أمره بين عدد من النساء في مدينة كبيرة كمصر وفي وصفها بأنها «امرأة العزيز» زيادة في التشهير بها. فقد جرت العادة بين الناس، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث، يكون أكثر انتشاراً بينهم، وأشد في النقد والتجريح.

(**امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِد فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ**) أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها .

- **قال أبو حيان** : وصرحوا بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم.

(**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**) أي قد: وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه.

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (شغفها) معناه : بلغ حتى صار من قلبها موضع الشغاف ، وهو على أكثر القول غلاف من أغشية القلب ، وقيل : " الشغاف " : سويداء القلب ، وقيل : الشغاف : داء يصل إلى القلب.

والمعنى : أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها ، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

(**إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**) أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

- **قال الخازن** : يعني في خطأ بيّن ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها.

(**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ**) قال بعضهم: بقولهن .

وإنما سمي قولهن مكراً لوجوه :

الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن.

وقال محمد بن إسحاق: بل بَلَغَهُنَّ حُسْنُ يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك

الثاني : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك غدراً ومكراً.

الثالث : أنهن وقعن في غيبتها ، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

- **قال الخازن** : وإنما سمى قولهن ذلك مكراً :

لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه .

وقيل : إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها واستكتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكراً .

- **قال الشوكاني** : (بِمَكْرِهِنَّ) أي : بغيبتهنّ إياها ، سميت الغيبة مكراً لاشتراكهما في الإخفاء .

وقيل : أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف ، فلهذا سمي قولهنّ مكراً .

وقيل : إنها أسرّت عليهنّ فأفشين سرّها فسمي ذلك مكراً ،

(**أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ**) أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن .

(**وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً**) قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدي، وغيرهم: هو المجلس المعد ، فيه مفارش ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه.

(**وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا**) في الكلام محذوف : أي : قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطع به .

(**وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ**) وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر .

(**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ**) أي: أعظمن شأنه ، وأجللن قدره .

- **قال ابن عطية** : معناه : أعظمنه واستهولن جماله ، هذا قول الجمهور .

(**وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**) أي : جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التي في أيديهن دون أن يشعرن بذلك، لشدة دهشتهن المفاجئة بهيئة يوسف.

- **قال الشوكاني** : أي : جرحنها ، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد ، بل المراد به : الخدش والحزّ .
- **قال الرازي** : اتفق الأكثرون على أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل؛ قيل : كان فضل يوسف على

الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب .

- **قال البغوي** : ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف .

(**وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا**) أي : معاذ الله أن يكون هذا بشراً .

(**إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**) وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين. فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير – أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة:

- **قال ابن كثير** : المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا : لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشياطين) وذلك لما ذكرنا أنه تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهنه بالملك.

(**قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**) تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحبّ لجماله وكماله.

- **قال الشوكاني** : ومعنى (فيه) أي : في حبه . وقيل : الإشارة إلى الحب ، والضمير له أيضاً ، والمعنى : فذلك الحب الذي لمتنني فيه هو ذلك الحب ، والأول أولى . ورجحه ابن جرير .

(**وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**) أي: والله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لي، فأبى وامتنع امتناعاً بليغاً، وتحفظ تحفظاً شديداً .

- **قال بعضهم**: لما رأين جماله الظاهر، أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال .

وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ) أي : ولئن لم يطاوعني ليعاقبن بالسجن والحبس ، وليكونن من الأذلاء المهانين .

- فعند ذلك استعاذ يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال :

(**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**) من الفاحشة .

قال ابن تيمية : فِي قَوْلِ يُوسُفَ (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) عِبْرَتَانِ :

إحْدَاهُمَا: اخْتِيَارُ السَّجْنِ وَالْبَلَاءِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي .

والثَّانِيَةُ: طَلَبُ سُؤَالِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى دِينِهِ وَيَصْرِفَهُ إلَى طَاعَتِهِ وَإِلَّا فَإِذَا لَمْ يُثَبِّتْ الْقَلْبَ صَبَا إلَى الْآمِرِينَ بِالذُّنُوبِ وَصَارَ مِنْ الْجَاهِلِينَ . فَفِي هَذَا تَوَكُّلٌ عَلَى اللَّهِ وَاسْتِعَانَةٌ بِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَفِيهِ صَبْرٌ عَلَى الْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ وَالْأَذَى الْحَاصِلِ إذَا ثَبَتَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ .

- قوله (**مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**) ولم يقل مما تدعوني إليه امرأة العزيز، لأنهن جميعا كن مشتركات في دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه، وبعد أن سمعن ما قالته في شأنه ربة الدار..

قال الآلوسي: «وإسناد الدعوة إليهن، لأنهن خوفنه من مخالفتها، وزين له مطاوعتها.

فقد روى أنهن قلن له أطع مولاتك، واقض حاجتها، لتأمن عقوبتها.

وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته، فلما خلت به دعته إلى نفسها ...

(**وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ**) اعتراف منه عليه السلام بضعفه البشرى الذي لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء، إذا لم

يكن معه عون الله تعالى وعنايته ورعايته.

والمعنى: وإلا تدفع عنى يا إلهى كيد هؤلاء النسوة، ومحاولاتهن إيقاعي في حبائلهن، أمل إليهن. وأطاوعهن على ما يردنه منى.

(**وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ**) أي : وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم، فيقعون في القبائح والمنكرات.

- **قال السعدي** : فإن هذا جهل، لأنه آثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا، فمن أجهل منه؟!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

(**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**) أي: فاستجاب الله تعالى ليوسف دعاءه وضراعته، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن، بأن أدخل اليأس في نفوسهن من الطمع في استجابته لهن، وبأن زاده ثباتاً على ثباته، وقوة على قوته، فلم ينخدع بمكرهن، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن.

(**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**) لدعاء الداعين، والمجيب لضراعة المخلصين .

(**الْعَلِيمُ**) بأحوال القلوب، وبما تنطوي عليه من خير أو شر.

العليم : بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه.

- **قال ابن كثير** : وذلك أن يوسف، عليه السلام، عَصَمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله) .

(**ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**) يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات –وهي الأدلة– على صدقه في عفته ونزاهته. فكأنهم –والله أعلم– إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِيّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه.

- **قال السعدي** (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.
- المراد بالآيات: الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته، كانشقاق قميصه من دبر، وقول امرأة العزيز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهي الكاذبة ... والحين: الزمن غير المحدد بمدة معينة.

الفوائد :

١–بيان طبيعة الإنسان في حب الاطلاع وتتبع الأخبار وخاصة النساء .

٢–ضعف النساء أمام الرجال وعدم قدرتهن على التحمل كالرجال .

٣-كيد النساء لبعضهن .

٤-أن من شغل قلبه بشيء إذا أصيب لم يجد الألم ولا يشعر به .

٥-احتمال المشقة في ذات الله والصبر على نوائب الدهر وانتظار الفرج ، فلابد من الصبر بفعل المأمور ، والصبر على المقدور .

قال ابن تيمية : ... فَلَا بُدَّ مِنْ التَّقْوَى بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عليه السلام اتَّقَى اللَّهَ بِالْعِفَّةِ عَنْ الْفَاحِشَةِ وَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ لَهُ بِالْمُرَاوَدَةِ وَالْحَبْسِ وَاسْتَعَانَ اللَّهَ وَدَعَاهُ حَتَّى يُثَبِّتَهُ عَلَى الْعِفَّةِ فَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ وَصَبَرَ عَلَى الْحَبْسِ .

وقال : ... وَمَنْ احْتَمَلَ الْهَوَانَ وَالْأَذَى فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَلَى الْكَرَامَةِ وَالْعِزِّ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ الْأَذَى قَدْ انْقَلَبَ نَعِيمًا .

وقال : وَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْ الشَّهَوَاتِ وَالْهَوَى الْغَالِبِ لِلَّهِ لَا رَجَاءً لِمَخْلُوقٍ وَلَا خَوْفًا مِنْهُ مَعَ كَثْرَةِ الدَّوَاعِي إلَى فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَاخْتِيَارِهِ الْحَبْسَ الطَّوِيلَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ يُوسُفُ : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) فَهَذَا لَا يُوجَدُ نَظِيرُهُ إلَّا فِي خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فَهَذَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) .

٦-وجوب الاعتصام بالله .

٧- ينبغي للعبدِ أن يلتجئَ إلى اللهِ، ويحتميَ بحِماه عند وجودِ أسبابِ المعصيةِ، ويتبَرَّأَ مِن حولِه وقُوَّتِه؛ لقولِ يوسُفَ عليه السلام : وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

٨-خطر ركون العبد على نفسه .

٩-خطر العشق والصور المحرمة .

١٠-عدم صبر النساء على حفظ الاسرار .

١١- إيثار السجن على المعصية من مظاهر الصديقية . ٢٥/ ١١ /١٤٣٩هـ

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)).

[يوسف : ٣٦- ٤١] .

(**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ**) أي وأدخِل يوسف السجن ، واتفق أنه أدْخِل حينئذ آخران من خدم الملك الخاص .

والفتيان: تثنية فتى، وهو من جاوز الحلم ودخل في سن الشباب.

قالوا: وهذان الفتيان كان أحدهما: خبازاً للملك وصاحب طعامه، وكان الثاني: ساقياً للملك، وصاحب شرابه.

وقد أدخلهما الملك السجن غضباً عليهما، لأنهما اتهما بخيانته.

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه.

- **قال ابن كثير** : وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السّمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه حباً شديداً ...ثم إنهما رأيا مناماً .

(**قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَانِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا**) أي : إني رأيت فيما يرى النائم. أني أعصر عنبا ليصير خمراً .

سماه بما يؤول إليه.

- **قال الماوردي** : قوله (إني أراني أعصر خمراً) أي عنباً. وفي تسميته خمراً وجهان :

أحدهما : لأن عصيره يصير خمراً فعبر عنه بما يؤول إليه.

الثاني : أن أهل عُمان يسمون العنب خمراً ، قال الضحاك. وقرأ ابن مسعود : إني أراني أعصر عنباً.

(**وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَانِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُ**) أي: وقال الثاني وهو خباز الملك، إني رأيت في المنام أني أحمل فوق رأسي سلالاً بها خبز، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسي .

(**نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ**) أي : أخبرنا بتفسير ما رأينا .

(**إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ**) أي : من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح، لإحسانك إلى غيرك، من السجناء الذين أنت واحد منهم.

فائدة :

قيل ليوسف (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) مرتين ، مرة في السجن ، ومرة وهو عزيز مصر ، هكذا المحسن يبقى محسناً لا تغيره الدنيا ولا المناصب .

- **قال الرازي** : ما المراد من قوله (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين) الجواب من وجوه :

الأول : معناه إنا نراك تؤثر الإحسان وتأتي بمكارم الأخلاق وجميع الأفعال الحميدة.

قيل : إنه كان يعود مرضاهم ، ويؤنس حزينهم فقالوا إنك من المحسنين أي في حق الشركاء والأصحاب .

وقيل : إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا إنك من المحسنين في أمر الدين ، ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله في تعبير الرؤيا ، وفي سائر الأمور .

وقيل : المراد (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين) في علم التعبير ، وذلك لأنه متى عبر لم يخط كما قال (وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الاحاديث) .

- **قال ابن عاشور** : الإحسان : الإتقان ، يقال : هو لا يحسن القراءة ، أي لا يتقنها.

ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها ، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة ، ولأنهم يتفاءلون بما عسى أن يبشرهم بالخلاص في المستقبل.

(**قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا**) قبل أن يبدأ يوسف عليه السلام في تأويل رؤياهما، أخذ يمهد لذلك بأن يعرفهما بنفسه، وبعقيدته، ويدعوهما إلى عبادة الله وحده ويقيم لهما الأدلة على ذلك ...

وهذا شأن المصلحين العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس، إنهم يسوقون لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم، ويقبل عليهم، ويستجيب لهم .

أي : قال يوسف لرفيقيه في السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما: «لا يأتيكما» أيها الرفيقان «طعام ترزقانه» في سجنكما، في حال من الأحوال، إلا وأخبرتكما بماهيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل إليكما.

وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول، فيستجيبا لدعوته لهما إلى وحدانية الله بعد ذلك.

- **قال الشوكاني** .... وَهَذَا لَيْسَ مِنْ جَوَابِ سُؤَالِهِمَا تَعْبِيرَ مَا قَصَّاهُ عَلَيْهِ، بَلْ جَعَلَهُ عليه السلام مُقَدِّمَةً قَبْلَ تَعْبِيرِهِ لِرُؤْيَاهُمَا بَيَانًا لِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ فِي الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُعْبِرِينَ الَّذِينَ يَعْبُرُونَ الرُّؤْيَا عَنْ ظَنٍ وَتَخْمِينٍ، فَهُوَ كَقَوْلِ عِيسَى عليه السلام: وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ) وَإِنَّمَا قَالَ يُوسُفُ عليه السلام لَهُمَا بِهَذَا ليحصل الانقياد منهما لَهُ فِيمَا يَدْعُوهُمَا إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الْكُفْ

- **قال البيضاوي** : أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه ، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد ، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير .

(**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**) نفى لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير ذلك مما لا يقره الدين.

أي: ذلك التفسير الصحيح للرؤيا، والأخبار عن المغيبات، كإخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما..

ذلك كله إنما هو العلم الذي علمني إياه ربي وخالقي ومالك أمري ، وليس عن طريق الكهانة أو التنجيم كما يفعل غيري .

(**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**) أي : خصني ربي بذلك العلم لأني من بيت النبوة ، وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله الذي خلقهم ورزقهم، وإنما يدينون بالعبودية لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر.

- **قال الرازي** : لقائل أن يقول : في قوله (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله) توهم أنه عليه السلام كان في هذه الملة. **فنقول جوابه من وجوه :**

الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه.

والثاني : وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد، ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية، ثم إنه أظهره في هذا الوقت، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

- **وقال الشوكاني** : ... وَالْمُرَادُ بِالتَّرْكِ هُوَ عَدَمُ التَّلَبُّسِ بِذَلِكَ مِنَ الْأَصْلِ، لَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَلَبَّسَ بِهِ، ثُمَّ تَرَكَهُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: مَا كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ .

- وفي هذا وجوب الإيمان بالله :

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِم) م .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ مَبْرُورٌ) ق .

(**وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**) فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً .

نبه على أصلين عظيمين : الإيمان بالله ، والإيمان بدار الجزاء ، إذ هما أعظم أركان الإيمان ، وكرر لفظة [هم] على سبيل التأكيد .

- الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيشمل ما يكون في القبر من سؤال الملكين، وعذاب القبر ونعيمه، والبعث، والحشر، والصراط، والجزاء، والجنة والنار، سمي بذلك لأنه لا يوم بعده.
- كثيراً ما يقرن الله بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وقال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ ..).

وقال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

وقال ﷺ (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً)

وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح، وهو أعظم رادع على التمادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى.

ولهذا قال عمر: لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى.

- **قال السعدي:** الآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، واليقين: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل.
- **قال الشيخ ابن عثيمين** رحمه الله: لأن الإيمان بالله هو الذي يبعث على العمل، ولهذا يقرن الله دائماً الإيمان بالله وباليوم الآخر.

(**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ**)أي اتبعت دين الأنبياء ، لا دين أهل الشرك والضلال ، والغرضُ إظهار أنه من (بيت النبوة) لتقوى رغبتهما في الاستماع اليه والوثوق بكلامه .

- وسماهم آباء جميعاً، لأن الأجداد آباء، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب، لكون ابراهيم هو أصل تلك الملة التي اتبعها، ثم تلقاها عنه إسحاق، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب .

وفي هذه الجملة الكريمة، بيان منه عليه السلام لرفيقيه في السجن، بأنه من سلسلة كريمة، كلها أنبياء، فحصل له بذلك الشرف الذي ليس بعده شرف، وقوله ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ تنزه عن الشرك بأبلغ وجه.

(**مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ**) أي : ما ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئا مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا .

(**ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ**) أي : ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة ، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم .

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ**) أي : ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، فيُؤْمِنونَ به ويُوحِّدونَه، ويعملونَ بما شرَعه لهم، بل يُشركون .

(**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ**) أي: قال يوسُفُ للشَّابَّيْنِ: يا ساكِنَيِ السِّجن .

فجعلهما مصاحبين للسجن ، لطول مقامهما فيه .

واختار هذا القول ابن جرير ، والقرطبي .

وقيل : المراد يا صاحبيَّ في السجن .

لأن السجن ليس بمصحوب ، بل مصحوب فيه .

واختار هذا القول الخازن وابن عاشور .

(**أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**) أي : يا صاحبي في السجن أآلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ، ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام ، خير أم عبادة الواحد الأحد ؟ المتفرد بالعظمة والجلال ؟ !

- ومعنى (الواحد) هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك.

كما قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ).

وقال تعالى (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

وقال تعالى (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

ففي هذه الآية: إثبات وحدانية الله تعالى، الذي لا إله إلا هو، وحده لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الذي ليس له ند ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) وقال (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

وقد بيّن سبحانه بأنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة فقال (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

وكفّر وضل من اتخذ إلهاً سواه أو معه، قال تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) وقال سبحانه (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ).

- وكيف يعبد غيره، والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد والرزق والإمداد والبسط والقبض، والرفع والخفض، قال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ).
- واسم الله (القهار) ورد في ستة مواضع من القرآن ، وورد القاهر في موضعين من القرآن وهما (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) وقوله (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) .

ومعناه :

- **قال ابن كثير**: هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره.
- **وقال السعدي**: القهار لجميع العالم العلوي والسفلي ، القهار لكل شيء ، الذي خضعت له المخلوقات ، وذلت لعزته وقوته وكمال قدرته.
- **وقال الخطابي**: هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلهم بالموت.
- من آثار هذا الاسم:

أولاً: أنه لا يكون إلا واحداً لا كفؤ له ، وإلا لم يكن قهاراً ، قال ابن القيم: لا يكون القهار إلا واحداً ، إذ لو كان معه كفؤ له فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق ، وإن قهره لم يكن كفؤاً ، فكان القهار واحداً ، ولهذا اقترن اسمه سبحانه (القهار) باسمه سبحانه (الواحد) في كل الآيات ، قال تعالى (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).

ثانياً: التعلق بالله وحده والتوكل عليه سبحانه ، وقطع العلائق بالأسباب المقهورة مع فعلها ، لأن حقيقة التوكل هي تمام الاعتماد على الله تعالى مع تمام الثقة بكفايته وإعانته ، وهذا لا يرصف إلا للواحد القهار.

ثالثاً: تعظيم الله –عز وجل– والخوف منه وحده وسقوط الخوف من المخاليق الضعاف المقهورين المغلوبين من القلب ، سواء كان ذلك خوفاً على الرزق أو خوفاً على الأجل.

(**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم**) أي : ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات .

- **قال ابن القيم** : ... وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة، لا مسمَّى لها: في الحقيقة. فإنهم سموها: آلهة، وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها، وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء؛ لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، وهذا كمن سمّى

قشور البصل: لحمًا، وأكلَها، فيقال: ما أكلت من اللحم إلَّا اسمه لا مسماه، وكمن سمّى التراب: خبزًا، وأكله، فيقال : ما أكلت إلا اسم الخبز، بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم؛ فإنه لا حقيقةَ لإلهيتها بوجه .

- **قال البغوي** : وَإِنَّمَا ذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَقَدِ ابْتَدَأَ الْخِطَابَ لِلِاثْنَيْنِ لِأَنَّهُ أَرَادَ جَمِيعَ أَهْلِ السِّجْنِ، وَكُلَّ مَنْ هُوَ عَلَى [مِثْلِ حَالِهِمَا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ .

(**مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**) أي : ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان .

(**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ**) أي: ما الحُكمُ إلَّا للهِ المستحِقِّ للعبادةِ دونَ ما سواه؛ فهو وحدَه الحاكِمُ بين عبادِه، المشَرّعُ لهم كما قال تعالى (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) .

- وفيه إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم..

(**أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**) أي : أمر سبحانه بإفراد العبادة له ، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والسلطان .

قال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) .

(**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**) أي : ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه .

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) أي : يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا ينفع ولا يضر .

(**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**) أي : يا صاحبي في السجن أما الذي رأى أنه يعصر خمراً فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر .

(**وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**) وأما الآخر الذي رأى على رأسه الخبز فيُقتل ويعلق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه – ولم يعين يوسف عليه السلام من هو الذي يسقى ربه خمرا، ومن هو الذي يصلب، وإنما اكتفى بقوله «أما أحدكما ... وأما الآخر» تلطفا معهما، وتحرجاً من مواجهة صاحب المصير السيئ بمصيره، وإن كان في تعبيره ما يشير الى مصير كل منهما بطريق غير مباشر.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (أَمَّا أَحَدُكُمَا) وإنما أبهمه لكونه مفهوماً أو لكراهة التصريح للخباز بأنه الذي سيصلب .

(**قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**) وهو ما رأياه وقصاه عليه ، يقال : استفتاه إذا طلب منه بيان حكم شيء سأله عنه مما أشكل عليه ، وهما قد سألاه تعبير ما أشكل عليهما من الرؤيا.

الفوائد :

١–جواز تسمية العنب خمراً ، لأنه يصنع منه غالباً .

٢–فضل الإحسان والصلاح ، فإن ذلك يكون سبباً لحب الناس للشخص وثقتهم به .

٣–من كان من أمره ظهور صلاحه وإحسانه يجعله موضع ثقة وتتجه إليه الأنظار .

٤–جواز التقرب بإحسان الرجل الصالح في طلب الحاجة منه .

٥–أنه كما على العبد عبودية الله في الرخاء ، فعليه عبودية في الشدة ، فيوسف لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد .

٦–وجوب اغتنام الفرصة للدعوة إلى الله .

٧–تقرير التوحيد عن طريق أحاديث السابقين .

٨– لا حكم في شيء إلا بحكم الله .

٩–أن الدِّينَ المستقيمَ– الذي عليه جميعُ الرُّسُلِ وأتباعهم– هو عبادةُ اللهِ وَحدَه لا شريكَ .

١٠-أن الأنبياء قد يطلعهم الله على شيء من الغيب .

١١-الفضل كله لله تعالى .

١٢-عدم الإيمان بالله واليوم الآخر مصدر كل الشرور والأضرار .

١٣-وجوب الإيمان بالله .

١٤-وجوب الإيمان باليوم الآخر .

١٥-تأويل الرؤيا يكون بعلم لا من التكهن والتنجيم .

١٦-وجوب نسبة الفضل والمنة لله تعالى .

١٧-هجر طريق الكفر والشرك وسلوك طريق الأنبياء والمرسلين .

١٨-أن التوحيد نعمة عظيمة أكثر الناس في غفلة عنها .

١٩-وجوب البراءة من الشرك وأهله .

٢٠-إطلاق لفظ الآباء على الأجداد .

٢١-تحريم الشرك بأنواعه .

٢٢-ذم الكثرة .

٢٣-جواب إبهام ما يسوء السائل عند سؤاله الرؤيا والشيء .

٢٤-ينبغي بذل العلم ونشره بلا تأخر ولا شرط .

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)) .

[يوسف : ٤٢] .

(**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**) أي: وقال يوسُفُ لصاحِبِه الذي تيقَّنَ أنَّه سينجو من القتلِ، ويخرُجُ مِن السِّجنِ: اذكُرني عند سيِّدِك الملِك، وأخبِرْه بأنِّي مسجونٌ بلا ذنبٍ .

- الظان : يوسف .
- **قال الشوكاني** : والمراد بالظنّ العلم ؛ لأنه قد علم من الرؤيا نجاة الشرابي وهلاك الخباز ، هكذا قال جمهور المفسرين.

وقيل : الظاهر على معناه ؛ لأن عابر الرؤيا إنما يظن ظناً ، والأوّل أولى وأنسب بحال الأنبياء.

(**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**) أي: فأنسَى الشَّيطانُ الفَتى الذي خرجَ مِن السِّجنِ أن يَذكُرَ يوسُفَ عند المَلِك، كما أوصاه بذلك .

(**فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِين**) أي: فمكث يوسُفُ في الحبسِ مَظلومًا مَنسيًّا بضعَ سنينَ .

- **قال الخازن** : وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين .

مبحث :

قوله (**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**) تقدم :أي: فأنسَى الشَّيطانُ الفَتى الذي خرجَ مِن السِّجنِ أن يَذكُرَ يوسُفَ عند المَلِك، كما أوصاه بذلك .

فالناسي : هو الساقي .

وهذا القول هو الصحيح في معنى الآية .

ممن اختار هذا القول ابن تيمية ، وأبو حيان ، وابن كثير ، والقاسمي ، والسعدي .

- **قال ابن كثير** : قوله (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) يقول: اذكر قصتي عند ربك –وهو الملك –فنسى ذلك الموصَى أن يُذَكِّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. (التفسير) .

وقيل المراد : فأنسى الشيطان يوسف ذكر الله ، فلم يدْعُ الله أن يخرجه من السجن .

أي : أنسى الشيطان يوسف ذكر الله فلجأ في طلب الخلاص إلى إنسان .

وممن اختار هذا القول : ابن جرير .

- **قال الخازن** : ... والقول الثاني : وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية ترجع إلى يوسف ، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذاً بهذا القدر فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

- وقال القرطبي : قوله تعالى (**فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**) الضمير في أنساه) فيه قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى يوسف ، أي : أنساه الشيطان ذكر الله ، وذلك لما قال يوسف لساقي الملك (اذكرني عند ربك) .نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق فعوقب باللبث .

وقيل : إن الهاء تعود على الناجي ، فهو الناسي ، أي : أنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف لربه .

- **قال ابن تيمية مبيناً ضعف القول الثاني : قال** ... قَالَ تَعَالَى (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) .

قِيلَ أُنْسِيَ يُوسُفُ ذِكْرَ رَبِّهِ لَمَّا قَالَ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) .

وَقِيلَ : بَلْ الشَّيْطَانُ أَنْسَى الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ذِكْرَ رَبِّهِ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ .

فَإِنَّهُ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) قَالَ تَعَالَى (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) .

وَالضَّمِيرُ يَعُودُ إلَى الْقَرِيبِ إذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ .

وَلِأَنَّ يُوسُفَ لَمْ يَنْسَ ذِكْرَ رَبِّهِ ؛ بَلْ كَانَ ذَاكِرًا لِرَبِّهِ . وَقَدْ دَعَاهُمَا قَبْلَ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا إلَى الْإِيمَانِ بِرَبِّهِ وَقَالَ لَهُمَا (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إنِ الْحُكْمُ إلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

وَقَالَ لَهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ) أَيْ فِي الرُّؤْيَا (إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) يَعْنِي التَّأْوِيلَ (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) .

ثم قال :

وَالَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ الْقَوْلَ قَالُوا : كَانَ الْأَوْلَى أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَلَا يَقُولَ اُذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّك . فَلَمَّا نَسِيَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ جُوزِيَ بِلُبْثِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ .

فَيُقَالُ :

لَيْسَ فِي قَوْلِهِ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) مَا يُنَاقِضُ التَّوَكُّلَ .

بَلْ قَدْ قَالَ يُوسُفُ (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) كَمَا أَنَّ قَوْلَ أَبِيهِ (لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) لَمْ يُنَاقِضْ تَوَكُّلَهُ ؛ بَلْ قَالَ : (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

وأَيْضًا : فَيُوسُفُ قَدْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ وَالْمُخْلِصُ لَا يَكُونُ مُخْلِصًا مَعَ تَوَكُّلِهِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ .

فَإِنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ وَيُوسُفُ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا لَا فِي عِبَادَتِهِ وَلَا تَوَكُّلِهِ بَلْ قَدْ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ فِي فِعْلِ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فَكَيْفَ لَا يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي أَفْعَالِ عِبَادِهِ .

وَقَوْلُهُ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) ....لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مُجَرَّدُ إِخْبَارِ الْمَلِكِ بِهِ ؛ لِيَعْلَمَ حَالَهُ لِيَتَبَيَّنَ الْحَقُّ وَيُوسُفُ كَانَ مَنْ أَثْبَتِ النَّاسِ . وَلِهَذَا بَعْدَ أَنْ طُلِبَ (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ) قَالَ (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) فَيُوسُفُ يَذْكُرُ رَبَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي تِلْكَ

فَلَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ لَهُ (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) تَرْكٌ لِوَاجِبٍ وَلَا فِعْلٌ لِمُحَرَّمٍ حَتَّى يُعَاقِبَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِلُبْثِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ . وَلُبْثُهُ فِي السَّجْنِ كَانَ كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ فِي حَقِّهِ ؛ لِيَتِمَّ بِذَلِكَ صَبْرُهُ وَتَقْوَاهُ فَإِنَّهُ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى نَالَ مَا نَالَ .

وَلِهَذَا قَالَ (أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وَلَوْ لَمْ يَصْبِرْ وَيَتَّقِ بَلْ أَطَاعَهُمْ فِيمَا طَلَبُوا مِنْهُ جَزَعًا مِنَ السَّجْنِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى وَفَاتَهُ الْأَفْضَلُ بِاتِّفَاقِ النَّاس . (مجموع الفتاوى) .

- **وقال أبو حيان** : ... فالمعنى أن يوسف عليه السلام قال لساقي الملك حين علم أنه سيعود إلى حالته الأولى مع الملك : اذكرني عند الملك أي : بعلمي ومكانتي وما أنا عليه مما آتاني الله ، أو اذكرني بمظلمتي وما امتحنت به بغير حق.

وهذا من يوسف على سبيل الاستعانة والتعاون في تفريج كربه ، وجعله بإذن الله وتقديره سبباً للخلاص كما جاء عن عيسى عليه السلام : (من أنصاري إلى الله) وكما كان الرسول يطلب من يحرسه.

والذي أختاره أن يوسف إنما قال لساقي الملك : اذكرني عند ربك ليتوصل إلى هدايته وإيمانه بالله ، كما توصل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه.

وقال أبو شهبة : ... وأغلب الظن عندي : أن هذا من الإسرائيليات ، فقد صورت سجن يوسف على أنه عقوبة من الله لأجل الكلمة التي قالها ، مع أنه عليه السلام لم يقل هجراً ، ولا منكراً ، فالأخذ في أسباب النجاة العادية ، وفي أسباب إظهار البراءة والحق ، لا ينافي قط التوكل على الله تعالى ، والبلاء للأنبياء ليس عقوبة ، وإنما هو لرفع درجاتهم ، وليكونوا أسوة وقدوة لغيرهم ، في باب الابتلاء ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : (أشد الناس بلاء الأنبياء ، فالأمثل ، فالأمثل) .

تنبيه : استدل بعضهم بحديث ابن عباس . قال : قال ﷺ (لو لم يقل -يعني يوسف- الكلمة التي قالها ما لبث في السجن طول ما لبث ، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله) .

- **قال ابن كثير** : وهذا الحديث ضعيف جداً .

الفوائد :

١- جواز الاستعانة بالمخلوق في الأمور العادية التي يقدر عليها بفعله أو قوله

قال القاسمي : دلت الآية على جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة ، ولو مشركاً .

وقد جاء ذلك في قوله تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) .

وقوله حكاية عن عيسى (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) .

وفي الحديث (والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) .

٢-الأخذ بالأسباب للنجاة من البلاء .

٣-أن الشيطان لا يترك ابن آدم ، ويحرص على نسيانه الخير .

قال تعالى (وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ

والشيطان يحاول بكل طريقة صد الإنسان عن الخير .

- **عقبات الشيطان:**

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله تعالى.

فإنه إن ظفر في هذه به بردت نار عداوته واستراح.

العقبة الثانية: عقبة البدعة.

إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله.

فإن نجا منها بنور السنة:

العقبة الثالثة: عقبة الكبائر.

فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه، وسوّف به.

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله أو بتوبة نصوح طلبه على:

العقبة الرابعة: عقبة الصغائر.

فكان له منها بالقُفز، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أوَما علمت بأنها تكفّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه.

العقبة الخامسة: عقبة المباحات التي لا حرج على فعلها.

فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية.

العقبة السادسة: عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات.

فأمره بها وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً؟ .

- فيجب الحذر من خطوات الشيطان لأنه عدو ظاهر مبين لنا.

فهو يحب أن يحزن المؤمن كما قال تعالى (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا) وأحب شيء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه.

- وهو يخوف المؤمنين بالأعداء.

كما قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي: يخوفكم بأوليائه.

- ويخوف بالفقر.

كما قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) فيخوف المسلم من الفقر وذلك لأمور: أولاً: ليُمسك عن الصدقة فيحرمه أجرها وثوابها العظيم، ثانياً: ليصيبه بالقلق والحزن، ثالثاً: ليشك بوعد الله: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، رابعاً: ليقدم على أكل الحرام خوفاً من الفقر كما قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين).

- ويحث على الرياء في الإنفاق والتبذير.

قال تعالى (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قريناً).
وكما قال تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً).
٤-احتياج الإنسان للوساطة في قضاء حاجته أو رفع الظلم عادة قديمة .
(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّيَ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)) .
[يوسف : ٤٣-٤٩] .

شروع في حكاية الرؤيا التي رآها ملك مصر في ذلك الوقت .

- **قال ابن كثير** : هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها، وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك .
- **وقال السعدي** : لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

تنبيه : كان ابتداءُ بلاءِ يوسف عليه السلام بسبب رؤيا رآها فَنَشَرَها وأظهرها ، وكان سببُ نجاتِه أيضاً رؤيا رآها المِلكُ فأظهرها ، لِيُعْلَم أَنَّ اللهَ يفعل ما يريد ؛ فكما جعل بَلاءَه في إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا ؛ لِيَعْلَم الكافةُ إن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء.
(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّيَ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) أي : وقال ملك مصر في ذلك الوقت لكبار رجال مملكته: إني رأيت فيما يرى النائم «سبع بقرات» قد امتلأن شحماً ولحماً يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ أي: يأكل هذه البقرات السبع السمان، سبع بقرات أخرى عجاف أي: مهازيل ضعاف.
«عجاف» جمع عجفاء والعجف- بفتح العين والجيم- ذهاب السمن، يقال: هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء، إذا ظهر ضعفهما وهزالهما.

- **قال أبو حيان** : العجفاء : المهزولة جداً .

(وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) ورأيت- أيضاً- فيما يرى النائم «سبع سنبلات خضر» قد امتلأت حباً ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات «أخر يابسات» قد ذهبت نضارتها وخضرتها، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها.

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (وقال الملك إني أرى سبع بقراتٍ سمان...) وهذه الرؤيا رآها الملك الأكبر الوليد بن الريان وفيها لطف من وجهين :

أحدهما : أنها كانت سبباً لخلاص يوسف من سجنه.
الثاني : أنها كانت نذيراً بجدب أخذوا أهبته وأعدوا له عدته.

(**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ**) أي : الأشراف والعلماء من قومي .

(**أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ**) أي : فسروا لي رؤياي هذه وبينوا لي ما تدل عليه.

(**إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**) أي : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتأويلها معرفة سليمة، وتعلمون تعبيرها علماً مستمراً .

- ويبدو أن القوم في ذلك الزمان، كان بعضهم يشتغل بتفسير الرؤى، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم .

فقد مرت بنا رؤيا يوسف، ورؤيا رفيقيه في السجن، ثم جاءت رؤيا الملك هنا، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف عليه السلام بتأويل رؤيا الملك، في زمن كثر فيه البارعون في تأويل الرؤى، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله تعالى ليوسف عليه السلام حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته.

(**قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ**) أي : قال الملأ للملك: ما رأيته أيها الملك في نومك ما هو إلا تخاليط أحلام ومنامات باطلة، فلا تهتم بها.

فهم قد شبهوا ما رآه بالأضغاث في اختلاطها، وعدم التجانس بين أطرافها.

الأضغاث : جمع ضِغث ، وهو كل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، والمعنى : أخاليط أحلام .

- **قال أبو حيان** : وأضغاث جمع ضغث أي تخاليط أحلام ، وهي ما يكون من حديث النفس ، أو وسوسة الشيطان ، أو مزاج الإنسان.

وأصله أخلاط النبات ، استعير للأحلام ، وجمعوا الأحلام.

والأحلام جمع حُلم ، والحُلم الرؤيا في النوم

(**وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِين**) أي : إننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة.

وقيل المعنى : لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق .

- **قال أبو حيان** : الظاهر أنهم نفوا عن أنفسهم العلم بتأويل الأحلام أي : لسنا من أهل تعبير الرؤيا.

ويجوز أن تكون الأحلام المنفي علمها أرادوا بها الموصوفة بالتخليط والأباطيل أي : وما نحن بتأويل الأحلام التي هي أضغاث بعالمين أي : لا يتعلق علم لنا بتأويل تلك ، لأنه لا تأويل لها إنما التأويل للمنام الصحيح ، فلا يكون في ذلك نفي للعلم بتأويل المنام الصحيح ، ولا تصور علمهم.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بعالمين) قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة ، نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا مطلق العلم بالتأويل.

وقيل : إنهم نفوا عن أنفسهم علم التعبير مطلقاً ، ولم يدّعوا أنه لا تأويل لهذه الرؤيا.

وقيل : إنهم قصدوا محوها من صدر الملك حتى لا يشتغل بها ، ولم يكن ما ذكروه من نفي العلم حقيقة.

- **قال السعدي** : قوله تعالى (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ) أي أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، بما ليس بعذر ، ثم قالوا (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ) أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم ، بأنها أضغات أحلام ، والإعجاب بالنفس ، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا .

(**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**) أي وقال الذي نجا من السجن وهو " الساقي " وتذكر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة .

والأمة: الجماعة التي تؤم وتقصد لأمر ما، والمراد بها هنا: المدة المتطاولة من الزمان .

وكان هذا الساقي قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله «اذكرني عند ربك» فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه، تذكر هذا الساقي حال يوسف.

- أطلقت الأمة في القرآن على عدة :

أ-بمعنى الطائفة.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ...).

وكما في هذا الحديث.

ب-بمعنى الإمام.

كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً).

ج-بمعنى الملة.

كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ...).

د-بمعنى الزمن.

كما قال تعالى (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ...).

(**أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ**) أي : قال الساقي للملك وحاشيته: أنا أخبركم بتأويله: بتفسير رؤيا الملك التي خفي تفسيرها على الملأ من قومه. فأرسلون، أي : فابعثوني إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها.

ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه، وهو يوسف عليه السلام لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا، فيكون ذلك أوقع في قلوبهم، وأسمى لشأن يوسف عليه السلام .

(**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ**) في الكلام محذوف دل عليه السياق وتقديره : فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له : يا يوسف يا أيها الصديق ، والصديق مبالغة من الصدق .

والصديق: هو الإنسان الذي صار الصدق دأبه وشيمته في كل أحواله، ووصفه بذلك لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه في السجن.

- **قال ابن عاشور** : و(الصدّيق) أصله صفةُ مبالغة مشتقة من الصّدْق ، كما تقدم عند قوله تعالى (وأمه صدّيقةٌ) .

وغلب استعمال وصف الصدّيق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى ، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين.

وأحسنُ ما رأيت في هذا المعنى كلمة الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن قال : "الصديقون هم دُوَيْن الأنبياء".

وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين) .

وقوله (وأمه صدّيقة) .

ومنه ما لَقّب النبي ﷺ أبا بكر بالصدّيق في قوله في حديث رجف جبل أحُد (أُسْكُنْ أُحُد فإنما عليك نبيء وصدّيق وشهيدان) من أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ومنهم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد النبي ﷺ .

وقد جَمع الله هذا الوصف مع صفة النبوءة في قوله (واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً) .

- **قال ابن كثير** : ... فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك .

(**أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ**) أي : فسر لنا تلك الرؤيا التي رآها الملك، والتي عجز الناس عن تفسيرها، وهي أن الملك رأى في منامه «سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

(**لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ**) تعليل لطلب الفتوى، وبيان لأهمّيّتها بالنسبة له وليوسف عليه السلام .

أي: فسر لنا هذه الرؤيا «لعلى أرجع إلى الناس» وهم الملك وأهل الحل والعقد في مملكته، «لعلهم يعلمون» تأويلها، فينتفعون به، وترتفع منزلتك عندهم.

وهنا تجد يوسف عليه السلام لا يكتفى بتأويل الرؤيا تأويلاً مجرداً بل يؤولها تأويلاً صادقاً صحيحاً ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله في مثل هذه الأحوال .

- **قال الرازي** : وإنما قال [لعلي أرجع إلى الناس] لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة ، فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال لعلّي .

(**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا**) أي : قال يوسف للساقي: فارجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين زراعة مستمرة على حسب عادتكم.

فمعنى (دأباً) أي : كما هي عادتكم ودأبكم .

(**فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ**) أي : فما حَصَدْتُمْ من زرعكم في كل سنة، فذروه في سنبله، أي: فاتركوا الحب في سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه: إلا قليلا مما تأكلون .

- **قال ابن كثير** : أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه في سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحْل التي تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي يأكلن السِّمان؛ لأن سنى الجَدْب يؤكل فيها ما جَمَعَوه في سني الخصب .
- وفي هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا في مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضي ذلك.
- **قال القرطبي**: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ولا خلاف، فإن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله- تعالى- وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله- عز وجل- ورحمة رحم بها عباده .

(**ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ**) أي: من بعد تلك السنين السبع المذكورات التي تزرعونها على عادتكم المستمرة في الزراعة.

(**سَبْعٌ شِدَادٌ**) أي : سبع سنين صعاب على الناس، لما فيهن من الجدب والقحط .

(**يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ**) أي : يأكل أهل تلك السنين الشداد، كل ما ادخروه في السنوات السبع المتقدمة من حبوب في سنابلها.

وأسند الأكل إلى السنين على سبيل المجاز العقلي، من إسناد الشيء إلى زمانه.

(**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ**) أي : أن تلك السنين المجدبة ستأكلون فيها ما ادخرتموه في السنوات السابقة، إلا شيئاً قليلاً منه يبقى محرزاً لتنتفعوا به في زراعتكم لأرضكم.

فقوله (تُحْصِنُونَ) من الإحصان بمعنى الإحراز والادخار، يقال أحصن فلان الشيء، إذا جعله في الحصن، وهو الموضع الحصين الذي لا يوصل إليه إلا بصعوبة.

- ثم بشرهم بعد الجَدْب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك

(**ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**) أي: ثم يأتي من بعد تلك السنين السبع الشداد، عام فيه تزول الهموم والكروب ونقص الأموال عن الناس، بسبب إرسال الله- تعالى- المطر عليهم، فتخضر الأرض وتنبت من كل زوج بهيج، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر كالزيتون وما يشبهه.

- والغيث المطر ؛ وقد غاث الغيث الأرضَ أي أصابها ؛ وغاث الله البلاَد يَغِيثها غَيْثاً .
- **قال ابن العربي** : قَوْله تَعَالَى (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ) وَهَذَا عَامٌ لَمْ يَقَعْ السُّؤَالُ عَنْهُ ، فَقِيلَ ، إنَّ اللَّهَ زَادَهُ عِلْمًا عَلَى مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ إظْهَارًا لِفَضْلِهِ وَإِعْلَامًا بِمَكَانِهِ مِنْ الْعِلْمِ ، وَمَعْرِفَتِهِ.

وَقِيلَ : أَدْرَكَ ذَلِكَ بِدَقَائِقَ مِنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا لَا تَرْتَقِي إلَيْهَا دَرَجَتُنَا.

وَهَذَا صَحِيحٌ مُحْتَمَلٌ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ) هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك ، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله.
- **قال قَتَادة** : زاده الله عِلم سَنَة لم يسألوه عنها إظهاراً لفضله ، وإعلاماً لمكانه من العلم وبمعرفته .
- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس) فهو بشارة وإدخال المسرة والأمل بعد الكلام المؤيس ، وهو من لازم انتهاء مدة الشدة ، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر. (التفسير) .

وحاصل تفسير يوسف عليه السلام لتلك الرؤيا: أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر، بالسنين السبع المخصبة. وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التي تأتي في أعقاب السنين المخصبة وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان، بأكلهم ما جمع في السنين المخصبة، في السنين المجدبة.

ولقد كان هذا التأويل لرؤيا الملك تأويلاً صحيحاً صادقاً من يوسف عليه السلام بسببه أنقذ الله- تعالى- مصر من مجاعة سبع سنين.

- في تفسير يوسف لرؤيا الملك آداباً :

أولاً : عدم تعنيف يوسف للناجي من السجينين لكونه لم يذكر شأن يوسف للملك .

ثانياً : عدم اشتراط يوسف أجراً على تأويل الرؤيا .

ثالثاً : عدم اشتراط يوسف الخروج قبل تفسيرها .

الفوائد :

١- **قال ابن العربي** : فِيهَا صِحَّةُ رُؤْيَا الْكَافِرِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا تَعَلَّقَتْ بِمُؤْمِنٍ ، فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ آيَةً لِنَبِيٍّ ، وَمُعْجِزَةً لِرَسُولٍ ، وَتَصْدِيقًا لِمُصْطَفًى لِلتَّبْلِيغِ ، وَحُجَّةً لِلْوَاسِطَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعِبَادِ.

٢- **قال الآلوسي** : وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمستفتي أن يعظم المفتي ، واستدل بذلك على أنهما لم يكذبا على يوسف في منامهم .

٣-جواز أن الرؤيا الصالحة قد يراها الكافر والفاسق .

٤-إذا أراد الله تفريج كربة أحد جعل لذلك سبباً .

٥-احتياج الملوك للعلماء .

٦-أن الرؤيا أنواع ، حلم من الشيطان ، ورؤيا من الرحمن .

٧-إظهار فضل العالم على أقرانه إنما يكون عند عجزهم وقدرته على ما عجزوا عنه .

- **قال السعدي** : ... وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتما لها غاية، فعبرها يوسف- وقعت عندهم موقعا عظيما، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدا ﷺ فيقول: "أنا لها أنا لها" فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقَّت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه.

٨-جواز وصف الإنسان بما فيه من غير إطراء .

٩-بذل العلم من غير اشتراط ولا تأخر .

١٠-فضل الصدق وأنها جماع الخير .

١١-الاقتصاد نصف المعيش .

١٢-يوسف كان عالماً بطريقة تسييس الناس وتحصيل منافعهم .

١٣-جواز ادخار الطعام لحين الحاجة إليه .

١٤-عدم كتم العلم وبيانه في الحال ، ولو ممن ظلمك أو أساء إليك .

١٥-استحباب التبشير بالخير ولو سبقه شدة وبلاء .

١٦-من النصح في الدعوة أن ألا يأخذ على دعوته وتعليمه مالاً أو عوضاً.

وهذا هُوَ شَأْنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ.

قال نوح لقومه (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) . الْآيَةَ.

قال تعالى عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

وفي سورة ص (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ).

وَقَوْلِهِ تعالى عَنْ هُودٍ فِي «سُورَةِ هُودٍ» (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي).

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّعَرَاءِ» عَنْ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَلُوطٍ، وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا).

(**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)**) .

[يوسف : ٥٠- ٥٣] .

(**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ**) يقول تعالى إخبارًا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف ﷺ وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال (ائْتُونِي بِهِ) أي: أخرجوه من السجن وأحضروه .

(**فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ**) أي : فلما جاء رسول الملك يوسف .

(**قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ**) أي : قال يوسف للرسول : ارجع إلى سيدك الملك .

(**فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**) أي : سله عن قصة النسوة اللائي قطعن أيديهن هل يعلم أمرهن ؟ وهل يدري لماذا حُبستُ ودخلت السجن ؟ وأني ظُلمت بسببهن ؟

أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعا أنه حبس بلا جرم .

- **قال الشوكاني** : أَمَرَهُ بِأَنْ يَسْأَلَ الْمَلِكَ عَنْ ذَلِكَ وَتَوَقَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ، وَلَمْ يُسَارِعْ إِلَى إِجَابَةِ الْمَلِكِ، لِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ بَرَاءَةَ سَاحَتِهِ وَنَزَاهَةَ جَانِبِهِ، وَأَنَّهُ ظُلِمَ بِكَيْدِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ظُلْمًا بَيِّنًا، وَلَقَدْ أُعْطِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْحِلْمِ وَالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ مَا تَضِيقُ الْأَذْهَانُ عَنْ تَصَوُّرِهِ .
- **قال ابن عطية:** كان هَذَا الْفِعْلُ مِنْ يُوسُفَ أَنَاةً وَصَبْرًا، وَطَلَبًا لِبَرَاءَةِ سَاحَتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَخْرُجَ وَيَنَالَ مِنَ الْمَلِكِ مَرْتَبَةً، وَيَسْكُتَ عَنْ أَمْرِ ذَنْبِهِ، فَيَرَاهُ النَّاسُ بِتِلْكَ الْعَيْنِ يَقُولُونَ هَذَا الَّذِي رَاوَدَ امْرَأَةَ العزيز .
- والمراد بالسؤال في قوله «ارجع إلى ربك فاسأله» الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر النسوة اللائي قطعن أيديهن .
- وجعل السؤال عن النسوة اللائي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز، وفاء لحق زوجها، واحترازا من مكرها، ولأنهن كن شواهد على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف : فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِين .

واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن، دون التعرض لكيدهن له، سترا لهن، وتنزها منه ﷺ عن ذكرهن بما يسوؤهن.

- **قال ابن عاشور** : وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلاً للكشف عن أمرها ، لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعياً للعزيز ، ولأن حديث المِتّكأ شاع بين الناس ، وأصبحت قضية يوسف عليه السّلام مشهورة بذلك اليوم ، كما تقدم عند قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه) ، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنها راودت يوسف ﷺ عن نفسه ، فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.
- وقد وردت السنة بمدحه على ذلك- أي على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته ونزاهة عرضه- :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (نَحْنُ أَحَقُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ) متفق عليه

(**إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ**) أي : إن ربي وحده هو العليم بمكرهن بي، وكيدهن لي، وهو سبحانه هو الذي يتولى حسابهن على ذلك.

(**قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ**) إخبار عن الملك حين جمع النّسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطبا لهن كلهن –وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز –: (مَا خَطْبُكُنَّ) أي: شأنكن وخبركن .

(**إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ**) يوم الضيافة .

والخطب الأمر الجلل ... فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه، فهو يواجههن مقررا الاتهام، ومشيرا إلى أمر لهن جلل.

- **قال الخازن** : نما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب ، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب .
- **وقال الشوكاني** : وَإِنَّمَا نَسَبَ إِلَيْهِنَّ الْمُرَاوَدَةَ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ وَقَعَ مِنْهَا ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ، وَمِنْ جُمْلَةِ مَنْ شَمَلَهُ خِطَابُ الْمَلِكِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ أَوْ أَرَادَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِنَّ وُقُوعَهُ مِنْهُنَّ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا كَانَ مِنِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ تَحَاشِيًا عَنِ التَّصْرِيحِ مِنْهُ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهَا لِكَوْنِهَا امْرَأَةَ وَزِيرِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ .

(**قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ**) أي: قالت النسوة جوابا للملك: حاش لله أن يكون يوسف مُتَّهَمَا، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك :

(**قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**) أي : ظهر وانكشف وبان .

(**أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ**) اعترفت بذلك .

(**وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**) في قوله (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) .

وهكذا يشاء الله تعالى أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد، بتلك الطريقة التي يراها الملك، وتنطق بها امرأة العزيز، والنسوة اللائي قطعن أيديهن.

- **قال الرازي** : هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهراً عن جميع العيوب ، وههنا دقيقة ، وهي أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال (مَا بَالُ النسوة الاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة ألبتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيماً لجانبها وإخفاء للأمر عليها ، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل ، ورأيت في بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادعت عليه المهر ، فأمر القاضي بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من إقامة الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك ، فإني مقر بصدقها في دعواها ، فقالت المرأة لما أكرمتني إلى هذا الحد فاشهدوا أني أبرأت ذمتك من كل حق لي عليك.

(**ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّيَ لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ**) هذا من تمام كلام امرأة العزيز .

تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أن لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفتُ ليعلم أني بريئة .

(**وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**) أي : لا يوفق الخائن ولا يسدد خطاه .

(**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي**) تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء .
الراجح أنه من تمام كلامها .

(**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ**) أي : إن النفس البشرية ميّالة إلى الشهوات إلا من رحمها ربي .

- **قال الخازن** : اختلفوا في النفس الأمارة بالسوء ما هي فالذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات : منها الأمارة بالسوء ، ومنها اللوامة ، ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فإذا دعت النفس إلى شهواها مالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة ، وقيل : إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة.

(**إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**) يغفر الزلات ، ويتوب على العاصين ، وذلك من رحمته سبحاته وتعالى .

- وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف عليه السلام القسم الذي تعرض خلاله لألوان من المحن والآلام، بعضها من إخوته، وبعضها من امرأة العزيز، وبعضها من السجن ومرارته ...

ثم بدأت بعد ذلك في الحديث عن الجانب الثاني من حياته عليه السلام .
وهو جانب الرخاء والعز والتمكين في حياته .

مبحث : ١

هذا القول هو الصحيح أن قوله (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) هذا من تمام كلام امرأة العزيز .

وذهب بعض العلماء : إلى أنه من كلام يوسف .

وهذا قول الأكثر .

- **قال الشوكاني** : ذَهَبَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ عليه السلام قَالَ الْفَرَّاءُ: وَلَا يَبْعُدُ وَصْلُ كَلَامِ إِنْسَانٍ بِكَلَامِ إِنْسَانٍ آخَرَ إِذَا دَلَّتِ الْقَرِينَةُ الصَّارِفَةُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى مَا يَلِيقُ بِهِ،

أي: إنما رَدَدْتُ الرسول ليعلم الملك براءتي وليعلم العزيز (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ) في زوجته (بِالْغَيْبِ) (وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

- **قال ابن كثير** : والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.
- **قال ابن تيمية** :... فَهَذَا كُلُّهُ كَلَامُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَيُوسُفُ إذْ ذَاكَ فِي السِّجْنِ لَمْ يَحْضُرْ بَعْدُ إلَى الْمَلِكِ وَلَا سَمِعَ كَلَامَهُ وَلَا رَآهُ، ... وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ إلَّا هَذَا الْقَوْلَ وَهُوَ قَوْلٌ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ ؛ بَلْ الْأَدِلَّةُ تَدُلُّ عَلَى نَقِيضِهِ .
- **وقال ابن القيم** في قوله (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي** ....) وخالفهم في ذلك آخرون أجل منهم وقالوا إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام والصواب معهم لوجوه :

أحدها : أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي) ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه .

الثاني : أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه قبل كان في السجن لما تكلمت بقولها الآن حصحص الحق والسياق صريح في ذلك . (ابن القيم) .

مبحث : ٢

هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة :

الأول : أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهماً بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة ، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعياً منه في فضيحة نفسه وفي تحديد العيوب التي صارت مندرسة مخفية والعاقل لا يفعل ذلك .

والثاني : أن النسوة شهدن في المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن (حَاشَ للَّهِ مَا هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) .

وفي المرة الثانية حيث قلن (حَاشَ للَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوء) .

والثالث : أن امرأة العزيز أقرت في المرة الأولى بطهارته حيث قالت (وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم) وفي المرة الثانية في هذه الآية.

مبحث ٣

خطر النفس الأمارة بالسوء .

وقد تكلَّم ابن القيم – رحمه الله – عن أنواع النفْس، وتكلَّم على كل نوع، فبعد أن ذكَر صفَة النفس المطمئنَّة وصِفة النفس اللَّوامة فقد ذكَر صفة النفس الأمارة بالسوء، فقال – رحمه الله –: (وأما النفس الأمَّارة فهي المذمومة؛ فإنها التي تأمُر بكل سوء، وهذا مِن طبيعتها، إلا ما وفَّقها الله وثبَّتها وأعانها، فما تخلَّص أحد مِن شرّ نفسه إلا بتوفيق الله له، كما قال تعالى – حاكيًا عن امرأة العزيز :– ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم) .

وقال – رحمه الله : وقد امتحَن الله سبحانه الإنسان بهاتَين النَّفسَين الأمارة واللوَّامة، كما أكرَمه بالمطمئنَّة، فهي نفْس واحدة، تكون أمَّارةً ثمَّ لوامةً ثم مُطمئنَّة، وهي غاية كَمالها وصلاحها، وأيَّد المطمئنَّة بجُنود عديدة، فجعل المَلَك قرينَها وصاحبها الذي يَليها ويُسدِّدها، ويقذف فيها الحقَّ ويُرغِّبها فيه، ويُريها حسن صورته، ويَزجُرها عن الباطل، ويُزهِّدها فيه.

إلى أن قال : وأما النفْس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها، فهو يَعِدُها ويمنِّيها، ويَقذف فيها الباطل، ويَأمُرها بالسوء، ويُزيِّنه لها، ويُطيل في الأمل، ويُريها الباطل في صورةٍ تَقبَلها وتَستحسِنها، ويمدُّها بأنواع الإمداد الباطل؛ مِن الأمانيّ الكاذِبة، والشهوات المهلِكة، ويَستعين عليها بهَواها وإرادتها. (إغاثة اللهفان) .

كيفية النجاة منها :

أولاً : الاستعاذة بالله تعالى منها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ ، وَإِذَا أَمْسَيْتُ ، قَالَ : قُلِ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ قَالَ قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ) د

ثانياً : التوكل والاستعانة بالله على النفس الأمارة بالسوء .

ثالثاً : يجاهد هذه النفس . فهي طماعة تقود لكل شر .

وفي الحديث (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لأحب أن يكون له ثالثاً ...) .

قال بعض السلف : جاهدت نفسي عشرين سنة على قيام الليل ثم استمتعت بها .

الفوائد :

١- **قال الرازي** : وهذا يدل- كما يقول الإمام الرازي- على فضيلة العلم، فإنه سبحانه جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية؟

٢-الحقائق لا تنكتِم أصلاً ولا بُدَّ من أن تَبينَ... ولو بعد حين ، فالحق لا بد أن يعلو ويظهر .

٣-فضيلة الحلم والأناة والتريث ، وهذا من تمام العقل .

٤-عِزَّةُ نَفْسِهِ وَحِفْظُ كَرَامَتِهَا ؛ إِذْ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَكُونَ مُتَّهَمًا بِالْبَاطِلِ حَتَّى يُظْهِرَ بَرَاءَتَهُ وَنَزَاهَتَهُ .

٥- وُجُوبُ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ وَإِبْطَالُ التُّهَمِ الَّتِي تُخِلُّ بِالشَّرَفِ كَوُجُوبِ اجْتِنَابِ مُوَافَقَتِهَا .

٦-التحلي بالصبر حتى يظهر النصر .

٧-من حسن الأدب والعشرة التلويح في شؤون النساء لا التصريح .

٨-السعي في براءة العرض أمر مطلوب .

٩-الاعتراف بالخطأ فضيلة .

١٠-أن رحمة الله هي التي تصرف السوء.

١١-ليس كل نفس أمارة بالسوء .

(**قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)**) .

[يوسف : ٥٤- ٥٥] .

(**قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ**) وفي الكلام إيجاز بالحذف، والتقدير: وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف عليه السلام انكشافاً تاماً ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز، وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه ..بعد كل ذلك قال الملك لخاصته: ائتوني بيوسف هذا .

- **قال الرازي** : اختلفوا في هذا الملك فمنهم من قال : هو العزيز ، ومنهم من قال : بل هو الريان الذي هو الملك الأكبر ، وهذا هو الأظهر لوجهين :

الأول : أن قول يوسف (اجعلني على خَزَائِنِ الأرض) يدل عليه.

الثاني : أن قوله (أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصاً له ، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصاً للعزيز ، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

(**أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**) أي : أجعله من خاصتي وأهل مشورتي .

- **قال الشوكاني** : أجعله خالصاً لي دون غيري ، وقد كان قبل ذلك خالصاً للعزيز ، والاستخلاص : طلب خلوص الشيء من شوائب الشركة ، قال ذلك لما كان يوسف نفيساً ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم .
- **قال ابن عاشور** : وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف عليه السلام تقريبَهُ منه ما ظهر من حكمته وعلمه ، وصبره على تحمّل المشاق ، وحسن خلقه ، ونزاهته ، فكل ذلك أوجب اصطفاءه.

(**فَلَمَّا كَلَّمَهُ**) أي : الملك .

فلما كلم الملك يوسف عليه السلام . واختاره ابن جرير .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (فَلَمَّا كَلَّمَهُ) في الكلام حذف ، وتقديره فأتوه به ، فلما كلمه ، أي : فلما كلم الملك يوسف ، ويحتمل أن يكون المعنى : فلما كلم يوسف الملك ، قيل : والأوّل أولى ؛ لأن مجالس الملوك لا يتكلم فيها ابتداء إلاّ هم دون من يدخل عليهم ، وقيل : الثاني أولى ؛ لقول الملك (قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) .

(**قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ**) أي : أنت اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة ، مؤتمن على كل شيء .

ومَكِينٌ صفة مشبهة من الفعل مكن- بضم الكاف-، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة، يقال: مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته، ويقال: مكنت فلانا من هذا الشيء إذا جعلت له عليه سلطانا وقدرة.

أَمِينٌ بزنة فعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون على ما نكلفك به، ومحل ثقتنا.

- **قال ابن عطية** : فلما جاءه وكلمه قال (إنك اليوم لدينا مكين أمين) فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطقه ما صدق به الخبر أو أربى عليه ، إذ المرء مخبوء تحت لسانه ؛ ثم لما زاول الأعمال مشى القدمية حتى ولاه خطة العزيز.
- **قال الجصاص** : ... هَذَا الْمَلِكُ لَمَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالدِّرَايَةِ لَمْ يَرُعْهُ مِنْ يُوسُفَ مَنْظَرُهُ الرَّائِعُ الْبَهِجُ كَمَا رَاعَ النِّسَاءَ لِقِلَّةِ عُقُولِهِنَّ وَضَعْفِ أَحْلَامِهِنَّ ، وَأَنَّهُنَّ إنَّمَا نَظَرْنَ إلَى ظَاهِرِ حُسْنِهِ وَجَمَالِهِ دُونَ عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ وَأَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَعْبَأْ بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ وَوَقَفَ عَلَى كَمَالِهِ بِبَيَانِهِ وَعِلْمِهِ قَالَ (إنَّك الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) فَقَالَ يُوسُفُ (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ ، وَالْحِفْظِ.

(**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**) أي : قال يوسف عليه السلام للملك: اجعلني- أيها الملك- المتصرف الأول في خزائن أرض مملكتك، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من أموال وأطعمة، لأني شديد الحفظ لما فيها، عليم بوجوه تصريفها فيما يفيد وينفع .

والخزائن جمع خزانة ، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، والحفيظ : الذي يحفظ الشيء ، أي : (إِنِّي حَفِيظٌ) لما جعلته إليّ من حفظ الأموال لا أخرجها في غير مخارجها ، ولا أصرفها في غير مصارفها (عَلِيمٌ) بوجوده جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها.

- **قال الشوكاني** : طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل ، ورفع الظلم ، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأوثان.
- **قال صاحب الكشاف**: وصف يوسف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق، وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقومه مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا .
- **وقال القرطبي** : ودلّت الآية أيضاً على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لي رسول الله ﷺ (يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها وإن أُعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها) .

وقال ﷺ (لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده) .

فالجواب : أوّلاً : أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاّها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألاّ يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: "لا تسأل الإمارة" (وأيضاً) فإن في سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام (وكِل إليها) ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرّ منها، ثم إن ابتلى بها فيرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله : (أعِينَ عليها) .

ثم قال : ...الرابع : أنه رأى ذلك فرضاً متعيناً عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر . (التفسير) .

- **قال ابن العربي** : كَيْفَ سَأَلَ الْإِمَارَةَ وَطَلَبَ الْوِلَايَةَ، وَقَدْ قَالَ ﷺ لِسَمُرَةَ (لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ ، وَإِنَّك إنْ سَأَلْتَهَا وُكِلْت إلَيْهَا، وَإِنْ لَمْ تَسْأَلْهَا أُعِنْت عَلَيْهَا) وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إنَّا لَا نُوَلِّي عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ ؟) .

وَعَنْ ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَجْوِبَةٍ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : إنِّي حَسِيبٌ كَرِيمٌ ، وَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ إبْرَاهِيمَ) .

وَلَا قَالَ : إنِّي مَلِيحٌ جَمِيلٌ ، إنَّمَا قَالَ : إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ، سَأَلَهَا بِالْحِفْظِ وَالْعِلْمِ لَا بِالْحَسَبِ وَالْجَمَالِ.

الثَّانِي : سَأَلَ ذَلِكَ لِيُوَصِّلَ إلَى الْفُقَرَاءِ حُظُوظَهُمْ لَا لِحَظِّ نَفْسِهِ.

الثَّالِثُ : إنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، فَأَرَادَ التَّعْرِيفَ بِنَفْسِهِ ، وَصَارَ ذَلِكَ مُسْتَثْنًى مِنْ قَوْلِهِ (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ فَرْضًا مُتَعَيَّنًا عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ غَيْرُهُ.

- **قال الخازن** : فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم.

قلت : إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس. أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك ، مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم ، ولما كان المالك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضاً مع كمال علمه بمصالح الدين.

الفوائد :

١- أنه يجوز لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِفَ نَفْسَهُ بِالْفَضْلِ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْمَحْظُورِ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ فِي قَوْله تَعَالَى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) .

٢- دلّت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل .

قال الماورديّ : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظَّفر بأهله.

٣-بعد الابتلاء والثبات يأتي الفرج والتمكين .

٤-الأمانة والصدق من أسباب التمكين في الأرض .

٥-أول التمكين ابتلاء .

٦-فضل العلم وشرفه ، إذ به رفع الملك يوسف إلى حضرته وهو رفيع .

٧-تحقيق الكلمة القائلة : المرء مخبوء تحت لسانه .

٨-الوصف بالأمانة هو الأبلغ في الإكرام .

٩-التمكين في الأرض من ثمرات الإحسان .

١٠- **قال القرطبي** : قال بعض أهل العلم : في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (٥٧)) .

[يوسف : ٥٧] .

(**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ**) بيان لسنة الله تعالى في خلقه، من كونه سبحانه لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أي: ومثل هذا التمكين العظيم. مكنا ليوسف في أرض مصر، بعد أن مكث في سجنها بضع سنين، لا لذنب اقترفه، وإنما لاستعصامه بأمر الله.

(**يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء**) ومثل هذا التمكين العظيم، مكنا ليوسف في أرض مصر، حيث هيأنا له أن ينتقل في أماكنها

ومنازلها حيث يشاء له التنقل، دون أن يمنعه مانع من الحلول في أي مكان فيها.

- **قال ابن جرير** : يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار .

فالجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل في جميع أرض مصر، كما يتصرف ويتنقل الرجل في منزله الخاص.

(**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء**) أي : نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاءه من عبادنا بمقتضى حكمتنا ومشيئتنا.

- فيه إثبات المشيئة لله، وليعلم أن كل شيء علّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة، أي: أنه ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفواً، لا، هي مشيئة مقرونه بالحكمة، والدليل على ذلك، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة.

(**وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**) الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه، بل نوفيهم أجورهم على إحسانهم في الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك.

فالإحسان : إحسان في عبادة الخالق، إحسان إلى المخلوق.

في عبادة الله، إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ).

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

فمن أعظم الإحسان الصبر في ذات الله : لصبره في الجبّ ، وفي الرقّ ، وفي السِّجن ، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة.

(**وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ**) يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كما قال تعالى في حق سليمان عليه السلام (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَلأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ) أي : ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا ؛ لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا ينقطع ؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متّق .

  في الدنيا موت وفي الآخرة لا موت — في الدنيا هموم وغموم وفي الآخرة لا هموم ولا غموم – في الدنيا نعيم منقطع وفي الآخرة نعيم دائم .

وهكذا كافأ الله تعالى يوسف على صبره وتقواه وإحسانه، بما يستحقه من خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

الفوائد :

١–أن التقي الأمين لا يضيع سعيه ،بل يحسن عاقبته ، ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة .

٢–فضيلة الإحسان في كل شيء .

٣–أن ثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا المنقطع .

٤–فضيلة الإيمان والتقوى .

٥–من كان محسناً في دنياه أصابته رحمة الله وثوابه في الدنيا كما يصيبانه في الآخرة .

(**وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)**) .

[يوسف : ٥٨- ٦٤] .

- **قال ابن عطية** : قال السدي وغيره : سبب مجيئهم أن الجماعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب ، وروي أنه كان في الغربات من أرض فلسطين بغور الشام. وقيل : كان بالأولاج من ناحية الشعب ، وكان صاحب بادية له إبل وشاء ، فأصابهم الجوع ، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصيبة ، فكان الناس يمتارون من عند يوسف ، وهو في رتبة العزيز المتقدم ، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير ، يسوي بين الناس .
- **وقال القرطبي** : قوله تعالى (وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ) أي : جاؤوا إلى مصر لما أصابهم القحط ليمتاروا ؛ وهذا من اختصار القرآن المعجز.

قال ابن عباس وغيره: لما أصاب الناس القحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده لِلْميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس (للناس) عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وَسْقاً .

- **قال ابن عاشور** : ... وكان مجيء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر للمِيرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين منازل آل يوسف عليه السلام ، وكان مجيئهم في السنة الثانية من سني القحط.

وإنما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره ، وإنما رحلوا للميرة كلهم لعل ذلك لأن التزويد من الطعام كان بتقدير يراعى فيه عدد الممتارين ، وأيضاً ليكونوا جماعة لا يَطمع فيهم قطاع الطريق ، وكان الذين جاءوا عشرة.

(**وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ**) جاءوا إليه جميعاً -ما عدا «بنيامين»- وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة على صد العدوان إذا ما تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون في أوقات الجدب والجوع .

(**فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ**) لأنه كان مرتقباً لحضورهم لعلمه بجدب بلادهم وعقد همته بهم ، مع كونه يعرف هيئاتهم في لباسهم وغيره ، ولم يتغير عليه كبير من حالهم.

- **قال ابن عاشور** : ودخولهم عليه يدلّ على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة.

وعرف يوسف عليه السلام إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته وزكانة عقله دونهم.

(**وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**) لم يعرفوه لطول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه، واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحا في البئر، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبدل الزي، ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف .

- **قال الماوردي**: لأنه فارقوه صغيراً فكبر، وفقيراً فاستغنى، وباعوه عبداً فصار ملكاً، فلذلك أنكروه، ولم يتعرف إليهم ليعرفوه.

- **قال القرطبي** : لأنهم خلّفوه صبياً ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدّة ؛ وهي أربعون سنة.
- ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن المجاعة التي حدثت في السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد- كما سبق أن أشرنا-.

كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف عليه السلام وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس، ومراقبته لشئون بيع الطعام، وعدم الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده، دون غيره من المسئولين في مصر.

(**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**) أصل الجهاز- بفتح الجيم وكسرها قليل-: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع، يقال: جهزت المسافر، أي هيأت له جهازه الذي يحتاج إليه في سفره، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها، وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه في دفنه .

- **قال ابن عطية** : و الجهاز ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل ، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

والمراد: أن يوسف بعد أن دخل عليه إخوته وعرفهم، أكرم وفادتهم. وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه، وهيأ لهم ما هم في حاجة إليه من الطعام وغيره، ثم استدرجهم بعد ذلك في الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم.

(**قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ**) قول يوسف هذا يستلزم : أن حديثاً متنوعا نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف، أن لهم أخاً من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفته لهم مباشرة، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك.

- **قال الرازي** : واعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سبباً لسؤال يوسف عن حال أخيهم ،

ومن هنا قال المفسرون: إن قوله ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ يقتضى كلاماً دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب .

ومما قالوه في توضيح هذا الكلام: ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليه قال لهم: من أنتم وما شأنكم؟ فقالوا: نحن قوم من أهل الشام، جئنا نمتار، ولنا أب شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، فقال لهم: كم عددكم قالوا عشرة، وقد كنا اثني عشر، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك، وكان أحبنا إلى أبينا، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه، هو باق لديه يتسلى به، فقال لهم حينئذ ائتوني بأخ لكم من أبيكم .

(**أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**) يرغبهم في الرجوع إليه .

أي : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام، وأنزلتكم ببلدي منزلاً كريماً ... وما دام أمري معكم كذلك، فلا بد من أن تأتوني معكم بأخيكم من أبيكم في المرة القادمة، لكي أزيد في إكرامكم وعطائكم.

- **قال الرازي** : قوله تعالى (وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) أي : خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم.

(**فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ**) أي : إن لم تأتوني بأخيكم فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية ، رغبهم ثم توعدهم .

- **قال الماوردي** : يعني فيما بعد لأنه قد وفاهم كيلهم في هذه الحال.
- **قال الرازي** : وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فإذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ، ث
- هذا التحذير منه عليه السلام لهم، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان.

- **قال في البحر** : والظاهر أن كل ما فعله يوسف ﷺ كان بوحي من الله والا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ، ولتتفسر الرؤيا الأولى .
- **قال القرطبي** : إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له : عن هذا أربعة أجوبة :

أحدها : يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فاتبع أمره فيه.

الثاني : يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام.

الثالث : لتتضاعف المسرّة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

الرابع : ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ؛ لميل كان منه إليه ؛ والأوّل أظهر ، والله أعلم

(**قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**) المراودة الاجتهاد في الطلب .

أي : قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيهم لأبيهم معهم: (سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ) أي: سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة «وإنا لفاعلون» هذه المراودة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء لحقك علينا.

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار أخيهم لأبيهم معهم- وهو «بنيامين» الشقيق الأصغر ليوسف-، ليس أمراً سهلاً أو ميسوراً، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم.

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ) الفتيان: جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته في عمله.

والبضاعة في الأصل: القطعة الوفيرة من الأموال التي تقتنى للتجارة، مأخوذة من البضع بمعنى القطع.

والمراد بها هنا: أثمان الطعام الذي أعطاه لهم يوسف ﷺ .

والرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب.

قال الشوكاني : والمراد هنا : الأوعية التي يجعلون فيها ما يمتارونه من الطعام .

والمراد بالبضاعة هنا هي التي وصلوا بها من بلادهم ليشتروا بها الطعام ، وكانت نعالاً وأدماً .

فعل يوسف ﷺ ذلك تفضلاً عليهم . وقيل : فعل ذلك ليرجعوا إليه مرة أخرى لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمن . قاله الفراء . وقيل : فعل ذلك ليستعينوا بها على الرجوع إليه لشراء الطعام . وقيل : إنه استقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام .

والمعنى: وقال يوسف ﷺ لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه: أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم- وهم إخوته- الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه منا من طعام، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم، لعل هؤلاء القوم عند ما يعودون إلى بلادهم، ويفتحون أمتعتهم، فيجدون فيها الأثمان التي دفعوها لنا في مقابل ما أخذوه من طعام وغيره.

لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى، ليدفعوها لنا في مقابل ما أخذوه.

- **قال الرازي** : اختلفوا في السبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم على وجوه :

الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه ، علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء محضاً فيبعثهم ذلك على العود إليه والحرص على معاملته.

الثاني : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى .

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط.

الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه ، أو رجعوا ليردوا المال إلى مالكه.

السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

(**لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ**) أي : لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم .

(**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) أي : لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها ، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن ، لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه .

(**فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ**) أي : فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له – قبل أن يفتحوا متاعهم – يا أبانا لقد أُنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين ، فإن ملك مصر ، ظن أننا (جواسيس) وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا .

(**فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)أي : أرسل معنا أخانا (بنيامين) لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا [وإنا له لحافظون] أي نحفظه من أن يناله مكروه

(**قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ**) أي : قال لهم يعقوب : كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بيوسف بعد أن ضمنتم لي حفظه ، ثم خنتم العهد ؟ فأخاف أن تكيدوا له ، كما كدتم لأخيه ؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أثق بحفظ الله .

- **قال ابن عطية** : قوله (هل) توقيف وتقرير ، وتألم يعقوب عليه السلام من فرقة بنيامين ، ولم يصرح بمنعهم من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة ، لكنه أعلمهم بقلة طمأنينته إليهم. وأنه يخاف عليه من كيدهم ، ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا نبئوا وانتقلت حالهم ، فلم يخف كمثل ما خاف على يوسف من قبل ، لكن أعلم بأن في نفسه شيئاً ، ثم استسلم لله تعالى ، بخلاف عبارته في قصة يوسف.

(**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا**) أي : حفظ الله خير من حفظكم .

(**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) فهو سبحانه أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يمنّ عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين .

فاستسلم يعقوب عليه السلام لله وتوكل عليه .

- **قال القرطبي** : في هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم ؛ ومعنى الآية : حفظ الله له خير من حفظكم إياه.

قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب: "فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً" قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لأردّنّ عليك ابنيك كليهما بعدما توكّلت عليّ.

- **قال الخازن** : وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم ، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك .

الفوائد :

١–من حسن أخلاق يوسف أنه عرف إخوته ولم يعنفهم .

٢–أن سنوات الجدب عمت البلاد وأرهقت العباد .

٣–القيادي الناجح يكون حاضراً في كل زمان ومكان .

٤–أن الترغيب يؤنس النفس ويستمليها .

٥–إكرام الضيف والعناية به .

٦–أثر الإيمان في السلوك ، إذ عرف يوسف أن إخوته لا يستحلون أكل مال بغير حقه .

٧-كرم يوسف عليه السلام .

٨-صاحب الحاجة قد يؤثر نفسه على غيره لشدة حاجته ولهفته .

٩-بيان مدى توكل يعقوب على الله .

١٠- التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الأمور .

١١-ترجيح المصلحة العامة على الخاصة .

(وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦٨)) .

[٦٥- ٦٨] .

(**وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ**) أي : ولما فتحوا الأوعية التي وضعوا فيها الميرة .

(**وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ**) أي : وجدوا ثمن الطعام في متاعهم .

- جاء في (**التفسير الوسيط**) أي : وحين فتحوا أوعيتهم التي بداخلها الطعام الذي اشتروه من عزيز مصر. فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد رد إليهم معه، ولم يأخذها عزيز مصر، بل دسها داخل أوعيتهم .

(**قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا**) أي : قالوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا أي : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذي فعله معنا عزيز مصر؟ لقد أعطانا الطعام الذي نريده، ثم رد إلينا ثمنه الذي دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك.

فما في قوله (ما نَبْغِي) استفهامية، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر .

والمراد ببضاعتهم: الثمن الذي دفعوه للعزيز في مقابل ما أخذوه منه من زاد.

أي : كيف لا نعجب وندهش، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندري ومعها الأحمال التي اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شيء؟

(**وَنَمِيرُ أَهْلَنَا**) أي : نجلب لهم الميرة .

(**وَنَحْفَظُ أَخَانَا**) أي : وَنَحْفَظُ أَخانا عند سفره معنا من أي مكروه.

(**وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ**) أي : ونزْدادُ بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر (كَيْلَ بَعِير) أي : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد، زيادة على هذه المرة نظرا لوجود أخينا معنا.

ولعل قولهم هذا كان سببه أن يوسف عليه السلام كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس، حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع في تلك السنوات الشداد. (لا يعطي الواحد إلا كيل بعير) .

(**ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ**) اسم الإشارة في قوله سبحانه (ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) يعود إلى الزاد الذي أحضروه من مصر؛ أي: ذلك الطعام الذي أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتي بطعام آخر.

- **قال الشوكاني** : ومعنى (ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ) أن زيادة كيل بعير لأخينا يسهل على الملك ، ولا يمتنع علينا من زيادته له لكونه يسيراً لا يتعاظمه ولا يضايقنا فيه .

وقيل إن المعنى : ذلك المكيل لأجلنا قليل نريد أن ينضاف إليه حمل بعير لأخينا . واختار الزجاج الأوّل .

(**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ**) أي : قال يعقوب عليه السلام لهم : والله لن أرسل معكم «بنيامين» إلى مصر، حتى تحلفوا لي بالله، بأن تقولوا: والله لنأتينك به عند عودتنا، ولن نتخلى عن ذلك .

(**إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ**) أي : إلا أن تُغلبوا فلا تقدروا على تخليصه ، ولا يبقى لكم طريق أو حيلة إلى ذلك، قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (إلا أن يحاط بكم) لفظ عام لجميع وجوه الغلبة والقسر والمعنى تعمكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا وجه تخلص. وقال مجاهد: المعنى: إلا أن تهلكوا جميعاً. وقال قتادة: إلا ألا تطيقوا ذلك.

وهذا يرجحه لفظ الآية. وانظر أن يعقوب عليه السلام قد توثق في هذه القصة ، وأشهد الله تعالى ، ووصى بنيه ، وأخبر بعد ذلك بتوكله ، فهذا توكل مع تسبب ، وهو توكل جميع المؤمنين .

(**فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ**) أي : فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد .

(**قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**) (قال) لهم على سبيل التأكيد والحض على وجوب الوفاء: الله تعالى على ما نقول أنا وأنتم وكيل، أي: مطلع ورقيب، وسيجازى الأوفياء خيرا، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقون من عقاب.

- **قال ابن كثير**: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

(**وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ**) يقول تعالى، إخباراً عن يعقوب عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

- **قال الآلوسي** : نهاهم عليه السلام عن ذلك حذراً من إصابة العين فإنهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة التي لم تكن لغيرهم عند الملك فكانوا مظنة لأن يعانوا إذا دخلوا كوكبة واحدة ، وحيث كانوا مجهولين مغمورين بين الناس لم يوصهم بالتفرق في المرة الأولى .

ثم قال: والعين حق، كما صح عن رسول الله ﷺ وصح أيضا بزيادة :ولو كان شيء يسبق القدر سبقته العين .

وقد ورد أيضاً : إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر .

- **قال الشوكاني** : ولم يكتف بقوله (لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ) عن قوله (وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ) لأنهم لو دخلوا من بابين مثلاً كانوا قد امتثلوا النهي عن الدخول من باب واحد ، ولكنه لما كان في الدخول من بابين مثلاً نوع اجتماع يخشى معه أن تصيبهم العين ، أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرّقة ، قيل : وكانت أبواب مصر أربعة .

(**وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ**) أي: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع .

جاء في (**التفسير الوسيط**) اعتراف منه عليه السلام بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة، لن يحول بينهم وبين ما قدره تعالى وأراده لهم، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة.

أي : وإني بقولي هذا لكم، لا أدفع عنكم شيئاً قدره الله عليكم، ولو كان هذا الشيء قليلاً .

(**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**) أي : ما الحكم إلا لله جل وعلا وحده لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء .

(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**) عليه وحده توكلت في جميع أموري .

(**وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**) (وعليه) وحده (فليتوكل المتوكلون) أي : المريدون للتوكل الحق، والاعتماد الصدق الذي لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله وأمر بها.

لأن بالتوكل يحصل كل مطلوب ، ويندفع كل مرهوب .

إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد، إلا أن العاقل عند ما يأخذ في الأسباب يجزم بأن الحكم لله وحده في كل الأمور، وأن الأسباب ما هي إلا أمور عادية، يوجد الله تعالى معها ما يريد إيجاده، ويمنع ما يريد منعه، فهو الفعال لما يريد.

ويعقوب عليه السلام عند ما أوصى أبناءه بهذه الوصية، أراد بها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدبا مع الله تعالى واضع الأسباب ومشرعها ...

- فالتوكل لا ينافي فعل الأسباب.

قال تعالى (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مع أنه تعالى لو أراد أسقطه لها بدون هز منها.

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

(يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ) محافظة عليهم من العين ثم قال (وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ).

فقد أخذ بالسبب والحيطة، وصرح بان الاعتماد على الله وحده.

قال ابن القيم أيضاً: فعلى حسن ظنك بربك ورجائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

التحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام: وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).

وقال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

وقال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

وقال ابن القيم – رحمه الله –ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك في التوكل؟ قال: على خصال أربعة:

علمت أن رزقي لا يأكله غيري ... فاطمأنت به نفسي. ... وعلمت أن عملي لا يعمله غيري ... فأنا مشغول به.

وعلمت أن الموت يأتي بغتة ... فأنا أبادره. ... وعلمت أني لا أخلو من عين الله ... فأنا مستحيٍ منه.

قال بعض العلماء لا تتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه.

وقال بعضهم: علامة التوكل انقطاع المطامع: أي في الخلق والأسباب.

(**وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**) قالوا: هي دفع إصابة العين لهم .

ومعنى (قضاها) أظهرها ولم يستطع كتمانها يقال: قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها.

- **قال الشوكاني** : والمعنى ولكن حاجة كانت في نفس يعقوب ، وهي شفقته عليهم ، ومحبته لسلامتهم ، قضاها يعقوب ، أي : أظهرها لهم ، ووصاهم بها غير معتقد أن للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم .

وقيل : إنه خطر ببال يعقوب أن الملك إذا رآهم مجتمعين مع ما يظهر فيهم من كمال الخلقة ، وسيما الشجاعة أوقع بهم حسداً وحقداً أو خوفاً منهم ، فأمرهم بالتفرّق لهذه العلة

(**وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ**) ثناء من الله تعالى على يعقوب بالعلم وحسن التدبير.

أي : وإن يعقوب عليه السلام لذو علم عظيم، للشيء الذي علمناه إياه عن طريق وحينا، فهو لا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله.

(**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) أي : لا يعلمون ما يعلمه يعقوب عليه السلام من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى، أو: ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله تعالى لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأني للأمور.

الفوائد :

١-الحذر لا يغني من القدر .

٢-مشروعية التوقي من العين .

٣-وجوب التوكل على الله وحده .

٤-أرشد يعقوب أولاده لاستعمال أسباب الحذر ، ثم أشار إلى أن هذه الأسباب ليست أسباباً كاملة ، ولا مغنية عن حكم الله

٥-إثبات العين .

٦-أن الكثرة والجمال من أسباب الإصابة بالعين .

٧-بالتوكل يحصل على مطلوب ويدفع كل مرهوب .

٨-الإيمان بالقدر والأخذ بأسباب الحذر .

٩-بيان فضل العلم وأهله .

١٠-طاعة الأب .

١١-ودلّت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذر أخاه مما يخاف عليه ، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة ؛ فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم.

(**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيۤ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)**) .

[يوسف : ٦٩- ٧٥] .

(**وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيۤ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) شروع في بيان ما دار بين يوسف عليه السلام وبين شقيقه «بنيامين» بعد أن حضر مع إخوته.

وقوله (آوى) من الإيواء بمعنى الضم. .

وقوله (فَلا تَبْتَئِسْ) افتعال من البؤس وهو الشدة والضر.

والمعنى : وحين دخل إخوة يوسف عليه، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئناً ومواسياً: إني أنا أخوك الشقيق، فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى، فإن الله تعالى قد عوض صبرنا خيراً، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه.

- **قال ابن كثير** : ... واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وقال: «لا تبتئس» أي : لا تأسف على ما صنعوا بي،

وأمره بكتمان هذا عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .

- **قال الرازي** : قوله (إِنِّيۤ أَنَاْ أَخُوكَ) فيه قولان : قال وهب : لم يرد أنه أخوه من النسب ، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس لئلا تستوحش بالتفرد.

والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس ، ولأن الأصل في الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة.

(**فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**) أي : ولما قضى حاجتهم وحمل إبلهم بالطعام والميرة .

(**جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ**) أي : وحين أعطى يوسف إخوته ما هم في حاجة إليه من زاد وطعام، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع في متاع أخيه «بنيامين» دون أن يشعر بهم أحد .

- السقاية: إناء كان الملك يشرب فيه، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف عليه السلام يكتال به في ذلك الوقت نظراً لقلة الطعام وندرته ، وهذه السقاية هي التي أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع .
- **قال ابن كثير** : (السقاية) وهي: إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب –قاله ابن زيد–كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزَّة الطعام إذ ذاك .
- **وقال ابن عطية** : (السقاية) الإناء الذي به يشرب الملك وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك وابن زيد.

(**ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ**) أي : ثم نادى مناد على إخوة يوسف عليه السلام وهم يتجهزون للسفر، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله: يا أصحاب هذه القافلة توقفوا حتى يفصل في شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة.

- والمراد بالمؤذن هنا: المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به. والمراد بالعير هنا: أصحابها .

- **قال الماوردي** : فإن قيل : كيف استجاز يوسف أن يجعل السقاية في رحل أخيه لسرقهم وهم برآء ، وهذه معصية؟

قيل عن هذه أربعة أجوبة :

أحدها : أنها معصية فعلها الكيال ولم يأمر بها يوسف.

الثاني : أن المنادي الذي كال حين فقد السقاية ظن أنهم سرقوها ولم يعلم بما فعله يوسف ، فلم يكن عاصياً.

الثالث : أن النداء كان بأمر يوسف ، وعنى بذلك سرقتهم ليوسف من أبيه ، وذلك صدق.

- **قال الآلوسي** : والذي يظهر أن ما فعله يوسف، من جعله السقاية في رحل أخيه. ومن اتهامه لإخوته بالسرقة.. إنما كان بوحي من الله تعالى لما علم سبحانه في ذلك من الصلاح، ولما أراد من امتحانهم بذلك. ويؤيده قوله تعالى (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) .
- **قال ابن عطية** : ... هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق ، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم ، فعلم يوسف أن إخوته – لثقتهم ببراءة ساحتهم – سيدعون في السرقة إلى حكمهم ؛ فتحيل لذلك ، واستسهل الأمر – على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام ، وعليهم – لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل ، وبوحي لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك ، – هذا تأويل قوم ، ويقويه. قوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف) .

وقيل : إنما أوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط ، ثم إن حافظها فقدها ، فنادى على ما ظهر إليه – ورجحه الطبري ؛ وتفتيش الأوعية يرد عليه.

وقيل : إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا ، وإنه عوقب على ذلك بأن قالوا : " فقد سرق أخ له من قبل "

(**قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ**) أي : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم وأخبرهم بأنهم سارقون، قالوا لهم: ماذا تفقدون– أيها الناس– من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون؟

- **قال الخازن** : ... ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم

(**قَالُواْ**) رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس

(**نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ**) قالُوا : نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ أي: صاعه الذي يشرب فيه، ويكتال به للممتارين.

(**وَلِمَن جَاء بِهِ**) أي : بهذا الصاع، أو دل على سارقه.

(**حِمْلُ بَعِيرٍ**) من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له.

- **قال القرطبي** : البعير هنا الجمل في قول أكثر المفسرين.

(**وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ**) وأنا بهذا الحمل كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك.

(**قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**) أي: قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة: تالله يا قوم، لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا، أننا ما جئنا إلى بلادكم، لكي نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق، وما كنا في يوم من الأيام ونحن في أرضكم لنرتكب هذه الجريمة، لأنها تضرنا ولا تنفعنا، حيث إننا في حاجة إلى التردد على بلادكم لجلب الطعام، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك، لأنكم بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا.

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ) أي : لنسرق ، لأن السرقة من الفساد في الأرض ، وإنما قالوا ذلك لهم لأنهم قد كانوا عرفوهم بالصلاح والعفاف. وقيل لأنهم ردّوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ، ومن يؤد الأمانة في غائب لا يقدم على سرقة مال حاضر.

(**قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ**) أي : قال المنادى وأعوانه لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفيا تاما. إذا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك في شريعتكم، إن وجدنا هذا الصواع في حوزتكم، وكنتم كاذبين في دعواكم أنكم ما كنتم سارقين.

(**قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ**) أي : قال إخوة يوسف: جزاء هذا السارق الذي يوجد صواع الملك في رحله ومتاعه أن يسترق لمدة سنة، هذا هو جزاؤه في شريعتنا.

- **قال الشوكاني** : ... جزاء السرقة للصواع أخذ من وجد في رحله –أي استرقاقه لمدة سنة– وتكون جملة «فهو جزاؤه» لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها. قال الزجاج وقوله «فهو جزاؤه» زيادة في البيان. أي: جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير». وقالوا «جزاؤه من وجد في رحله» ولم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته، للإشارة إلى كمال نزاهتهم، وبراءة ساحتهم من السرقة، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها في هذا المقام.

(**كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**) أي : مثل هذا الجزاء العادل، وهو الاسترقاق لمدة سنة، نجازي الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم.

- **قال القرطبي** : أَيْ كَذَلِكَ نَفْعَلُ فِي الظَّالِمِينَ إِذَا سَرَقُوا أَنْ يُسْتَرَقُّوا، وَكَانَ هَذَا مِنْ دِينِ يَعْقُوبَ ﷺ وَحُكْمِهِ. وَقَوْلُهُمْ هَذَا قَوْلُ مَنْ لَمْ يَسْتَرِبْ نَفْسَهُ، لِأَنَّهُمُ الْتَزَمُوا اسْتِرْقَاقَ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ، وَكَانَ حُكْمُ السَّارِقِ عِنْدَ أَهْلِ مِصْرَ أَنْ يَغْرَمَ ضِعْفَيْ مَا أَخَذَ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا.
- **وقال السمرقندي** : وكان الحكم في أرض مصر للسارق: الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان: أنهم يأخذون السارق ويسترقونه، ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم .

الفوائد

١- في التأسي مسلاة .

٢-وجوب نصرة الأخ الضعيف والشد من أزره .

٣-جواز الحيلة للمصلحة .

قال القرطبي : جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل ، إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلاً .

قال السعدي : فيه جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

٤- البريء واثق من نفسه ، جريء في قوله وتصرفه .

٥-حسن تدبير يوسف للإبقاء على أخيه معه .

٦-مشروعية الكفالة .

٧-جواز الحلف للحاجة أو لإثبات البراءة .

٨-السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض .

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦))

[يوسف : ٧٦] .

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ) لإزالة التهمة .

أي : فبدأ المؤذن بتفتيش أوعيتهم، قبل أن يفتش وعاء «بنيامين» فلم يجد شيئاً بداخل أوعيتهم ، فلما وصل إلى وعاء «بنيامين» وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعاً .

(كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) أي : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه ومقصده، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية في رحل أخيه، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق في شريعتهم.. وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه، لو نفذ شريعة ملك مصر، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال في شريعة يعقوب، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه.

وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم في حال من الأحوال، إلا في حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك، فهو سبحانه الذي ألهمه أن يدس السقاية في رحل أخيه، وهو سبحانه الذي ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق في شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد صواع الملك في رحله منهم.

فقوله (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) أي : في حكمه وقضائه والكلام استئناف وتعليل لذلك الكيد، كأنه قيل: لماذا

فعل؟ فقيل: لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده في دين الملك في أمر السارق إلا بذلك الكيد، لأن جزاء السارق في دينه أن يضاعف عليه الغرم ... دون أن يسترق كما هو الحال في شريعة يعقوب.

- **قال ابن عاشور** : والكيد : هنا هو إلهام يوسف عليه السلام لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المصْمَت.

(**إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ**) أي : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره ؛ لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

(**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء**) استئناف لبيان قدرة الله تعالى وسعة رحمته وعطائه.

أي: نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب...كما رفعنا درجات يوسف عليه السلام.

قال بعض العلماء : بالعلم والإيمان .

(**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**) أي : فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي الى ذي العلم البالغ وهو (رب العالمين) .

قال الحسن : ليس عالم إلا فوقهَ عالم حتى ينتهي العلم إلى الله ، وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم .

قال الشوكاني (وَفَوْقَ كُلّ ذِي عِلْمٍ) ممن رفعه الله بالعلم (عَلِيمٌ) أرفع رتبة منهم وأعلى درجة لا يبلغون مداه، ولا يرتقون شأوه.

وقيل : معنى ذلك أن فوق كل أهل العلم عليم وهو الله سبحانه.

الفوائد :

١-قال الرازي : واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال (نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء) وأيضاً وصف إبراهيم عليه السلام بقوله (نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء) عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف ههنا يوسف أيضاً بقوله (نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء) لما هداه إلى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت.

قال السمرقندي : العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات .

٢- جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعا ثابتا» «٢» .

٣-كيد يوسف لإخوته بتدبير من الله .

(**قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)**) .

[يوسف : ٧٧- ٧٩] .

(**قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ**) أي : قال إخوة يوسف عليه السلام بعد هذا الموقف المحرج لهم. إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل- وهو يوسف- ما يشبه ذلك.

وقولهم هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنا من نفوسهم.

وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة في مرادهم بقولهم هذا :

قيل : كان يوسف قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره .

وقيل : أن عمته كانت تحبه حباً شديداً فأرادت أن تمسكه عند نفسها ، وكان قد بقي عندها منطقة لإسحاق عليه السلام وكانوا

يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق ، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

وقيل : أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع ، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة .

(**فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**) أي : أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يُظهرها لإخوته تلطفاً معهم .

(**قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا**) أي أنتم شرٌ منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه .

(**وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ**) أي أعلم بما تتقولون وتفترون .

(**قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً**) استرحام واستعطافٌ أي قالوا مستعطفين : يا أيها السيد المبجل إن أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه

(**فخذ أحدنا مكانه**) أي خذ بدله واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة .

(**إنا نراك من المحسنين**) أي أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان .

(**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا**) أي : قال يوسف لهم: نعوذ بالله تعالى معاذا، من أن نأخذ في جريمة السرقة إلا الشخص الذي وجدنا صواع الملك عنده وهو «بنيامين» .

وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق في شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة، فنحن نسير في هذا الحكم تبعا لشريعتكم.

(**إِذًا لَّظَالِمُونَ**) إذا أخذنا شخصا آخر سوى الذي وجدنا متاعنا عنده. والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم، فاتركوا الجدال في هذا الأمر الذي لا ينفع معه الجدال، لأننا لا نريد أن نكون ظالمين.

الفوائد :

١-الحلم عند الغضب .

٢-بيان أن شريعة يعقوب أن السارق يسترق سنة .

٣-أن للكبير حقاً يتوسل به .

٤-وضع العقوبة في غير موضعها .

(**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)**) .

[يوسف : ٨٠- ٨٢] .

(**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ**) أي : فلما يئسوا يأساً تاماً من الوصول إلى مطلوبهم .

(استيأسوا) يئسوا يأسا تاما فالسين والتاء للمبالغة.

(**خَلَصُواْ نَجِيًّا**) أي : انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه، وفيما يقولونه لأبيهم عند ما يعودون إليه ولا يجد معهم «بنيامين» .

(خلصوا) من الخلوص بمعنى الانفراد.

(نجياً) حال من فاعل خلصوا. وهو مصدر أطلق على المتناجين في السر على سبيل المبالغة.

(**قَالَ كَبِيرُهُمْ**) لم يذكر القرآن اسم كبيرهم، لأنه لا يتعلق بذكره غرض منهم .

- **قال الرازي** : قيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل ، وقيل كبيرهم في العقل وهو يهودا .

(**أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ**) أليس قد أعطيتم أباكم عهداً وثيقاً برد أخيكم ؟(ومن قبل ما فرطتم في يوسف) أي : ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف ؟ فكيف ترجعون إليه الآن ؟

(**فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ**) أي : أرض مصر .

(**حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي**) بمفارقتها، لأنه قد أخذ علينا العهد الذي تعلمونه بشأن أخي بنيامين.

- **قال الشوكاني** : وإنما قال ذلك لأنه يستحي من أبيه أن يأتي إليه بغير ولده الذي أخذ عليهم الموثق بإرجاعه إليه إلاّ أن يحاط بهم كما تقدّم .

(**أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي**) بمفارقتها والخروج منها .

وقيل : المعنى أو يحكم الله لي بخلاص أخي من الأسر حتى يعود إلى أبي وأعود معه .

وقيل : المعنى أو يحكم الله لي بالنصر على من أخذ أخي فأحاربه وآخذ أخي منه ، أو أعجز فأنصرف بعد ذلك .

(**وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**) لأن أحكامه لا تجري إلاّ على ما يوافق الحق ، ويطابق الصواب.

(**ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**) أي : (ارجعوا) يا إخوتي (إلى أبيكم) يعقوب (فقولوا) له برفق وتلطف (يا أبانا إن ابنك) بنيامين (سرق) صواع الملك، ووجد الصواع في رحله وقولوا له أيضاً إننا (ما شهدنا إلا بما علمنا) أي : وما شهدنا على أخينا بهذه الشهادة إلا على حسب علمنا ويقيننا بأنه سرق.

- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (ارجعوا إلى أَبِيكُمْ) من قول كبيرهم ، وقيل : من قول يوسف وهو بعيد .
- **قال الرازي** : إن قيل : كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة ، والجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعاً في موضع ما كان يدخله أحد إلا هم ، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذي أخذ الصواع .

والوجه الثاني : في الجواب أن تقدير الكلام (إِنَّ ابنك سَرَقَ) في قول الملك وأصحابه ومثله كثير في القرآن.

الوجه الثالث : في الجواب أن ابنك ظهر عليه ما يشبه السرقة ومثل هذا الشيء يسمى سرقة فإن إطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز في القرآن قال تعالى (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) .

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) من استخراج الصواع من وعائه ، وقيل المعنى : ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شريعتك وشريعة آبائك .
- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) أي قولنا لك إن ابنك سرق : إنما هو شهادة بما علمنا من ظاهر ما جرى .

(**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**) أي : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك، عند ما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا.

- قوله تعالى (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) فيه احتِراسٌ مِن تَحَقُّقِ كونِه سرَقَ؛ وهو إمَّا لقصْدِ التَّلطُّفِ مع أبيهم في نِسبةِ ابنِه إلى السَّرِقةِ، وإمَّا لأنَّهم عَلِموا مِن أمانةِ أخيهم ما خالجَهُم به الشَّكُّ في وُقوعِ السَّرِقةِ منه .

(**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا**) قيل : المراد مصر .

- **قال البيضاوي** : أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة .
- **قال الرازي** : والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر ، وقال قوم ، بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش .
- **قال في التسهيل** : قوله تعالى (وَسْئَلِ القرية) واسأل أهل القرية ، وكذلك أهل العير : يعنون الرفقة ، هذا هو قول الجمهور ، وقيل : المراد سؤال القرية بنفسها والعير بنفسها ولا يبعد أن تخبره الجمادات لأنه نبيّ والأول أظهر وأشهر على أنه مجاز ، والقرية هنا هي مصر .
- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ....) هذا من تمام قول كبيرهم لهم أي : قولوا لأبيكم : أسأل القرية التي كنا فيها أي : مصر ، والمراد أهلها أي : أسأل أهل القرية ؛ وقيل : هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها وامتاروا منها.

وقيل : المعنى : واسأل القرية نفسها وإن كانت جماداً فإنك نبيّ الله ، والله سبحانه سينطقها فتجيبك.

(**وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا**) معطوف على ما قبله ، أي : اسأل أهل القرية التي كنا فيها، واسأل «العير» أي: قوافل التجارة التي كنا فيها عند ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك «بنيامين» .

(**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**) فيما أخبرناك به .

الفوائد :

١-**قال القرطبي**: في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلِم أنه قد يُظنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهَّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه، ويصرّح بالحق الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتكلَّم؛ وقد فعل هذا نبيّنا محمد ﷺ بقوله للرجلين اللذين مرَّاً وهو قد خرج مع صفِية يَقْلِبُها من المسجد: "على رسلِكما إنما هي صفية بنت حُيَيّ" فقالا: سبحان الله! وكَبُر عليهما؛ فقال النبي ﷺ: إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإني خَشِيت أن يَقذِف في قلوبكما شيئاً" رواه البخاري ومسلم.

٢-لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه .

٣-مشروعية التشاور في الأمر الهام .

٤-من آداب الكلام أن يقدم الأكبر .

٥-لا أحد يعلم الغيب إلا الله .

٦-الاحتراس في النقل أمان من الكذب .

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)) .

[يوسف : ٨٣- ٨٧] .

(**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا**) أي : قال لهم: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، أي : ليس الأمر كما تدعون، ولكن أنفسكم هي التي زينت لكم أمرا أنتم أردتموه .

(**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**) لا تجزع فيه ولا تسخط ولا شكوى لمخلوق .

(**عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا**) أي : عسى الله تعالى أن يجمعني بأولادي جميعاً- يوسف وبنيامين وروبيل الذي تخلف عنهم في مصر- إنه سبحانه هو العليم بحالي، الحكيم في كل ما يفعله ويقضى به.

وهذا القول من يعقوب عليه السلام يدل دلالة واضحة على كمال إيمانه، وحسن صلته بالله تعالى وقوة رجائه في كرمه وعطفه ولطفه سبحانه.

- وقد جاء في الحديث (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) .

فمن أحسن ظنه بالله آتاه الله إياه.

لقوله ﷺ (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي) متفق عليه.

وفي المسند قال ﷺ (إن الله عز وجل قال: أنا عند ظن عبدي بي، إنْ ظن بي خيراً فله ، وإن ظن شراً فله) .

والمعنى : أعاملُه على حسب ظنه بي ، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر .

وقال عبد الله بن مسعود (والذي لا إله غيرُه ، ما أُعطي عبدٌ مؤمن شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل ، والذي لا إله غيره ، لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنَّه ، ذلك بأنَّ الخيرَ في يده) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن.

قال سهل القطعي رحمه الله (رأيت مالك بن دينار رحمه الله في منامي، فقلت : يا أبا يحيى ليت شعري ، ماذا قدمت به على الله عز وجل؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة، فمحاها عني حسن الظن بالله) رواه ابن أبي الدنيا .

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال (قلت للنّبيّ ﷺ وأنا في الغار: لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) متفق عليه .

- ومعنى حُسن الظن بالله عَز وجل : هو اعتماد الإنسان المؤمن على ربِّه في أموره كلها ، و يقينه الكامل ، وثقته التامة بوعد الله ووعيده ، و إطمئنانه بما عند الله ، و عدم الاتكال المطلق على تدبير نفسه وما يقوم به من أعمال .
- وحسن الظن بالله من مقتضيات التوحيد ، لأنه مبنيٌ على العلم برحمة الله وعزته ، وإحسانه وقدرته ، وحسن التوكل عليه ، فإذا تم العلم بذلك أثمر حسن الظن .

- **قال ابن القيِّم** : كلما كان العبد حَسن الظَّن بالله، حَسن الرَّجاء له، صادق التوكُّل عليه: فإنَّ الله لا يخيِّب أمله فيه البتَّة؛ فإنَّه سبحانه لا يخيِّب أمل آملٍ، ولا يضيِّع عمل عاملٍ، وعبَّر عن الثقة وحُسْن الظَّن بالسَّعة؛ فإنَّه لا أشرح للصَّدر، ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْن ظنِّه به .

وقال أيضًا: فعلى قدر حُسْن ظنِّك بربِّك ورجائك له، يكون توكُّلك عليه؛ ولذلك فَسَّر بعضهم التَّوكُّل بحُسْن الظَّن بالله، والتَّحقيق :أنَّ حُسْن الظَّن به يدعوه إلى التوكُّل عليه، إذ لا يُتَصَوَّر التَّوكُّل على من ساء ظنك به، ولا التَّوكُّل على من لا ترجوه .

(**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**) بحالي .

(**الْحَكِيمُ**) في أفعاله وأوامره وأحكامه .

(**وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**) أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم الأول (يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) جَدَّد له حزنُ الابنين الحزن الدفين .

- **قال الخازن** : إنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول .
- **وقال الرازي** : واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين عظم أسفه على يوسف عليه السلام :

(وَقَالَ يأَبَتِ دَخَلُواْ على يُوسُفَ) وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه :

الوجه الأول : أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن .

والوجه الثاني : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل ، فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام ، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

الوجه الثالث : أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه التي عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

الرابع : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها.

(**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ**) أي : وَابْيَضَّتْ عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف بصره، حيث انقلب سواد عينيه بياضا من كثرة البكاء.

● **قال الماوردي** : قوله تعالى (وابيضت عَيْنَاه من الحزن) فيه قولان :

أحدهما : أنه ضعف بصره لبياض حصل فيه من كثرة بكائه.

الثاني : أنه ذهب بصره ، قاله مجاهد.

(**فَهُوَ كَظِيمٌ**) أي : ممتلئ حزنا على فراق يوسف له، إلا أنه كاتم لهذا الحزن لا يبوح به لغيره من الناس.

قالوا: وإنما تأسف على يوسف دون أخويه- بنيامين وروبيل- مع أن الرزء الأحدث أشد على النفس ... لأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا والخطوب ولأن حبه ليوسف كان حباً خاصاً لا يؤثر فيه مرور الأعوام ... ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة السابقة عليها، وتهيج أحزانها .

(**قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ**) أي : لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه .

(**حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا**) أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة .

● **قال ابن عطية** : و " الحرض " : الذي قد نهكه الهرم أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والحس ، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور " حَرَضاً " بفتح الراء والحاء .

(**أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ**) يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

● **قال القرطبي** : غرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقةً عليه ، وإن كانوا السبب في ذلك.

(**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي**) أي : غمي وهمي وأحزاني .

قال بعض العلماء : والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزناً ، وإذا لم يقدر على كتمه كان بثاً .

(**إِلَى اللَّهِ**) وحده .

(**وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) أي: أرجو منه كل خير.

(**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**) يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين.

والتحسس: هو طلب الشيء بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث.

والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر.

● **قال ابن عطية** : والتحسس : طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع ، ويستعمل في الخير والشر ، فمن استعماله في الخير هذه الآية ، وفي الشر نهي النبي ﷺ في قوله : ولا تحسسوا ، وقوله (من يوسف وأخيه) وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن

روبيل إنما بقي مختاراً.

(**وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ**) أي : لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه .

(**إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) أي : فإنه لا يقنط من رحمته تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرته جل وعلا .

وحقيقة القنوط من رحمة الله : هو استبعاد الفوز بها في حق العاصي .

قال تعالى (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّون) .

تحريم القنوط من رحمة الله ، لأنه سوء ظنٍ بالله ، **وذلك من وجهين** :

الوجه الأول : أنه طعن في قدرته سبحانه .

الوجه الثاني : أنه طعن في رحمته سبحانه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: (الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله). (رواه البزار والطبراني بسند حسن) .

فائدة :

كذلك يحرم الأمن من مكر الله :

وهو الغفلة عن عقوبته مع الإقامة على موجبها وهو المحرمات .

فهو من الكبائر .

قال تعالى (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

وجه الدلالة من وجهين :

أحدهما : في قوله (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ) لأنه استفهام استنكاري يتضمن ذمهم على ما اقترفوه ، والذم للفعل دليل على تحريمه ومنافاته لما ينبغي من إجلال الله وإعظامه .

والآخر : في قوله (إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون) لأنه جعله سبباً لخسرانِهم ، وما أنتج خُسراً فهو محرّم مباين لتعظيم الله ، فكل محرّم يوجب خُسْراً ، وكل طاعةٍ تورث ربحاً .

الفوائد :

١- جواز اتهام البريء لملابسات أو تهمة سابقة .

٢-الصبر الجميل هو الذي لا تسخط ولا جزع ولا شكوى فيه .

٣-وجوب الصبر عند المصيبة .

٤-فضل حسن الظن بالله .

٥-أن المؤمن عندما تحيط به الخطوب يفزع إلى الله .

٦-ثقة المؤمن بربه .

٧-جواز إظهار التأسف والحزن والشكوى لله .

٨-بيان أن المصائب تذكر ببعضها .

٩-جواز البكاء عند المصيبة .

١٠-فضيلة كظم الغيظ .

١١-شكوى المؤمن همه وغمه إلى الله من أسباب الفرج .

١٢- قرب الفرج يقوي الرجاء .

١٣-اشتدي أزمة تنفرجي .

١٤-أن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً .

١٥-سنة الله في الابتلاء .

١٦-تحريم اليأس من رحمة الله .

١٧-اليأس من رحمة الله من صفة الكافرين .

١٨-القنوط من الكبائر .

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)) .

[يوسف : ٨٨- ٩٢] .

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ) قال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف، بعد أن دخلوا عليه للمرة الثالثة «يا أيها العزيز» أي: الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة في الرزق، «مسنا وأهلنا الضر» أي : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر والجدب والهزل من شدة الجوع.

- **قال الشوكاني** : قوله تعالى (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ) أي : على يوسف ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فذهبوا كما أمرهم أبوهم إلى مصر ليتحسسوا من يوسف وأخيه ، فلما دخلوا على يوسف .

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ) أي: وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من التجار، إهمالاً لها، واحتقاراً لشأنها.

- **قال الشوكاني** : والمعنى : أنها بضاعة تدفع ولا يقبلها التجار . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة . قال أبو عبيدة : إنما قيل للدراهم الرديئة : مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ، والبضاعة هي القطعة من المال يقصد بها شراء شيء .

واختلف في هذه البضاعة ما هي؟ فقيل : كانت قديداً وحيساً ، وقيل : صوف وسمن ، وقيل : الحبة الخضراء والصنوبر ، وقيل : دراهم رديئة ، وقيل : النعال والأدم .

(فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) أي : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك .

(وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ) إما بزيادة يزيدها لهم على ما يقابل بضاعتهم ، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها ، وأن يجعلها كالبضاعة الجيدة في إيفاء الكيل لهم بها ، وبهذا قال أكثر المفسرين .

قال بعض العلماء : تصدق علينا برد أخينا بنيامين .

وضعف هذا القول ابن جرير فقال : ... وَإِنْ كَانَ قَوْلاً لَهُ وَجْهٌ ، فَلَيْسَ بِالْقَوْلِ الْمُخْتَارِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ : (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) لِأَنَّ الصَّدَقَةَ فِي الْمُتَعَارَفِ : إِنَّمَا هِيَ إِعْطَاءُ الرَّجُلِ ذَا الْحَاجَةِ بَعْضَ أَمْلاَكِهِ ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةً ، فَتَوْجِيهُ تَأْوِيلِ كَلاَمِ اللَّهِ إِلَى الأَغْلَبِ مِنْ مَعْنَاهُ فِي كَلاَمِ مَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِ أَوْلَى وَأَحْرَى.

(**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**) ما يجعله لهم من الثواب الأخروي ، أو التوسيع عليهم في الدنيا .

(**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**) أي : هَلْ تَذْكُرُونَ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ، إِذْ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهُمَا وَصَنَعْتُمْ مَا صَنَعْتُمْ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ، يَعْنِي فِي حَالِ جَهْلِكُمْ بِعَاقِبَةِ مَا تَفْعَلُونَ بِيُوسُفَ ، وَمَا إِلَيْهِ صَائِرٌ أَمْرِهِ وَأَمْرِكُمْ ؟

وقيل: نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل، لأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم.

والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات بعد ذلك، من عفوه عنهم، وطلب المغفرة لهم.

(**قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ**) أي : أإنك لأنت أخونا يوسف الذي أكرمنا ... والذي فارقناه وهو صغير فأصبح الآن عزيز مصر، والمتصرف في شئونها؟ ..

(**قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**) أي : قال أَنَا يُوسُفُ الذي تتحدثون عنه. والذي فعلتم معه ما فعلتم (وهذا أخي) بنيامين الذي ألهمني الله الفعل الذي عن طريقه احتجزته عندي، ولم أرسله معكم (قد منّ الله علينا) حيث جمعنا بعد فراق طويل، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ومن ضيق إلى فرج .

(**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**) أي : إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَيُرَاقِبُهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ وَيَصْبِرْ ، يَقُولُ : وَيَكُفُّ نَفْسَهُ ، فَيَحْبِسُهَا عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ نَزَلَتْ بِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُبْطِلُ ثَوَابَ إِحْسَانِهِ وَجَزَاءَ طَاعَتِهِ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَهُ وَنَهَاهُ.

قال تعالى (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

وقال تعالى (بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

وقال تعالى (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) .

- **قال ابن تيمية:** فذكر الصبر والتقوى في هذه المواضع الأربعة، فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور، والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحظور.
- **قال ابن عاشور** : وجملة (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ) تعليل لجملة (مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا). فيوسف عليه السلام اتقى الله وصبر وبينيامين صبر ولم يعص الله فكان تقياً. أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضاً بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم.

وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

(**قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**) أي : نقسم بالله تعالى لقد اختارك الله تعالى لرسالته، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة.

(**قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**) أي : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتي: لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم، فقد عفوت عما صدر منكم في حقي وفي حق أخي من أخطاء وآثام .

(**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**) يغفر الزلات ، ويمحو الخطيئات .

(**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) بعباده ، فيجازي محسنهم ويغفر لمسيئهم .

الفوائد :

١-جواز الإخبار بالبلاء من غير تسخط .

٢-فضل الصدقة والمتصدقين .

٣-فضيلة الإحسان والمحسنين .

٤-أن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء .

٥-ابتلاء الأنبياء بالشدة والرخاء .

٦-أن المعاصي لا تكون إلا نتيجة الجهل بالله تعالى .

٧-بيان فضل التقوى والصبر .

٨-نتيجة الصبر حميدة .

٩-الجزاء يكون في الدنيا والآخرة .

١٠-تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة .

١١-الزيادة على السؤال عند الحاجة والبيان .

١٢- الاعتراف بالخطأ .

١٣- العفو عند المقدرة .

١٤-التوبة تجب ما قبلها .

(اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)) .

[يوسف : ٩٣ – ٩٨] .

(اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا) قال الطبري : ذُكر أن يوسف لما عرف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا : ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه ، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك .

- **قال الرازي** : قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك .
- **وقال ابن عطية** : حكمه بعد الأمر إلقاء القميص على وجه أبيه بأن أباه يأتي بصيراً ويزول عماه دليل على أن هذا كله بوحي وإعلام من الله .

وقال ابن عاشور : وأما كونه يصير بصيراً فحصل ليوسف عليه السلام بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

ولعل يوسف عليه السلام نُبِيءَ ساعتئذٍ.

- **قال بعض العلماء** : وكان الذي حمل قميصه يهوذا ، قال ليوسف : أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذي أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله .
- **قال أبو حيان** : قيل : هو القميص الذي توارثه يوسف وكان في عنقه ، وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أنْ يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي.

وقيل : كان لإبراهيم كساه الله إياه من الجنة حين خرج من النار ، ثم لإسحاق ، ثم ليعقوب ، ثم ليوسف.

وقيل : هو القميص الذي قدّ من دبر ، أرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة.

والظاهر أنه قميص من ملبوس يوسف بمنزلة قميص كل واحد ، قال ذلك : ابن عطية.

وهكذا تتبين الغرابة في أنْ وجد يعقوب ريحه من بعد ، ولو كان من قمص الجنة ما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد.

- **وقال الآلوسي** : ... وقيل : هو القميص الذي قد من دبر وأرسله ليعلم يعقوب أنه عصم من الفاحشة ولا يخفى بعده .

قال القاسمي : قوله تعالى (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء .

- **قال في التسهيل** : روي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله له حين أخرج من النار ، وكان من ثياب الجنة ، ثم صار لإسحاق ، ثم ليعقوب ، ثم دفعه يعقوب ليوسف ، وهذا يحتاج إلى سند يوثق به ، والظاهر أنه كان قميص يوسف الذي بمنزلة قميص كل أحد .
- **وقال ابن عاشور** : قوله (اذهبوا بقميصي هذا) يدل على أنه أعطاهم قميصاً ، فلعلّه جعل قميصه علامة لأبيه على حياته ، ولعلّ ذلك كان مصطلحاً عليه بينهما.

وكان للعائلات في النظام القديم علامات يصطلحون عليها ويحتفظون بها لتكون وسائل للتعارف بينهم عند الفتن والاغتراب ، إذ كانت تعتريهم حوادث الفقد والفراق بالغزو والغارات وقطع الطريق ، وتلك العلامات من لباس ومِن كلمات يتعارفون بها وهي الشعار ، ومن علامات في البَدن وشَامات.

وفائدة إرساله إلى أبيه القميصَ أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر ، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر ، ولقصد تعجيل المسرة له.

والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه فإنّ قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصاً ولا توجد أمثالها عند الناس ، وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم ، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق.

(**وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**) من رجال ونساء وأطفال .

(**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ**) أي : خرجت من مصر منطلقة إلى الشام.

يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا ، بمعنى فارقوه .

(**قَالَ أَبُوهُمْ**) أي : قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده .

(**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**) أي : رائحته التي تدل عليه، وتشير إلى قرب لقائي به.

(**لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**) أي : لولا أن تنسبوني إلى الفند ، من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم في السن.

والتفنيد : النسبة للفنَد بفتحتين ، وهو اختلال العقل من الخرف.

(**قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**) أي : لفي ذهابك عن الصواب المتقدم ، في إفراطك في محبة يوسف ، ولهجتك بذكره ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به ، وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته ، وكانت مدة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام اثنتين وعشرين سنة.

وكان خطابهم إياه بهذا مشتملاً على شيء من الخشونة إذ لم يكن أدب عشيرته منافياً لذلك في عرفهم.

– لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات:

الأول: إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار.

كما قال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).ومنه قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ).
ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)، وهذا أغلب استعمال الضلال.

والثاني: هو إطلاق الضلال على الغَيْبَة والاضمحلال.

ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر.

ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي: اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها.

والثالث: إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل ما لم يهتد إلى علم شيء تقول العرب: ضل.

ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا.

وقوله (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ) أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء، لأنك تظن يوسف حياً، ولا يريدون الضلال، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبياً من الأنبياء. (الشنقيطي).

(**فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ**) قال الرازي : قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا .

- **قال ابن عاشور** : والتبشير : المبادرة بإبلاغ الخبر المسرّ بقصد إدخال السرور.

(**أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا**) أي : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو ألقاه يعقوب نفسه على وجهه .

قيل : إنه كان قد عمي بالكلية فالله تعالى جعله بصيراً في هذا الوقت.

وقيل : بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان ، فلما ألقوا القميص على وجهه ، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوي بصره وزال النقصان عنه .

(**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**) وهذا – والله أعلم – هو انتظاره لتأويل الرؤيا – ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط.

(**قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**) الضمير لبنيه ، طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم .

(**قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ**) أي : سوف أدعوه لكم .

قال بعضهم : أرجأهم إلى وقت السحر .

- **قال ابن كثير** : وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة جمعة : عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي) يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه ، وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

(**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

الفوائد :

١–النفس تنشرح عند حلول الفرج .

٢–الحث على صلة الأرحام .

٣–استحباب تبشير المسلم .

٤–نسبة العلم والفضل إلى الله .

٥–الاعتراف بالخطأ .

٦–من آذى مسلماً فيجب أن يتحلل منه .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ ، أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لاَ

يَكُونَ دِينَارٌ ، وَلاَ دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) رواه البخاري .

٧-كرم يعقوب وعفوه وصفحه على أولاده .

٨-استحباب تحري الأوقات الفاضلة .

٩- أن الله غفور رحيم .

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)) .

[يوسف : ٩٩- ١٠٠] .

(**فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ**) لعلّ في الكلام محذوفاً مقدّراً ، وهو : فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر ، فلما دخلوا على يوسف .

(**آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ**) أي : ضمهما وأنزلهما عنده ، قال المفسرون : المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف؛ لأن أمه قد كانت ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين ، كما تقدّم . وقيل : أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له .

- **قال المفسرون** : المراد بالأبوين هنا يعقوب وزوجته خالة يوسف؛ لأن أمه قد كانت ماتت في ولادتها لأخيه بنيامين ، كما تقدّم . وقيل : أحيا الله له أمه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدت له .
- **قال ابن كثير** : وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ جَرِيرٍ: كَانَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ يَعِيشَانِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَلَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَوْتِ أُمِّهِ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى حَيَاتِهَا، وَهَذَا الَّذِي نَصَرَهُ هُوَ الْمَنْصُورُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ

(**وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ**) ظاهر النظم القرآني : أن يوسف قال لهم هذه المقالة ، أي : ادخلوا مصر قبل دخولهم ، وقد قيل في توجيه ذلك : أنه تلقاهم إلى خارج مصر ، فوقف منتظراً لهم في مكان أو خيمة ، فدخلوا عليه فـ (آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادخلوا مِصْرَ) .

- **قال ابن كثير** : وَقَدْ أُشْكِلَ قَوْلُهُ (آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَآوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَرَفَعَهُمَا عَلَى العرش .

ورد ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا، وَأَجَادَ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ اخْتَارَ مَا حَكَاهُ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ لَمَّا تَلَقَّاهُمَا، ثُمَّ لَمَّا وَصَلُوا بَابَ الْبَلَدِ قَالَ: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ.

وَفِي هَذَا نَظَرٌ أَيْضًا، لِأَنَّ الْإِيوَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَنْزِلِ، كَقَوْلِهِ (آوى إِلَيْهِ أَخاهُ) وَفِي الْحَدِيثِ (مَنْ آوَى مُحْدِثًا)

وَمَا الْمَانِعُ أن يكون قال لهم بعد ما دَخَلُوا عَلَيْهِ وَآوَاهُمْ إِلَيْهِ: ادْخُلُوا مِصْرَ، وَضَمَّنَهُ اسْكُنُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ، أَيْ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْقَحْطِ، وَيُقَالُ- وَاللَّهُ أَعْلَمُ-

(**آمِنِينَ**) أَيْ : مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْقَحْطِ، وَيُقَالُ-وَاللَّهُ أَعْلَمُ- إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أَهْلِ مِصْرَ بَقِيَّةَ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةِ بِبَرَكَةِ قُدُومِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمْ، كَمَا رَفَعَ بَقِيَّةَ السِّنِينَ الَّتِي دَعَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ حِينَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ» ثُمَّ لَمَّا تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ وَاسْتَشْفَعُوا لَدَيْهِ، وَأَرْسَلُوا أَبَا سُفْيَانَ فِي ذَلِكَ، فَدَعَا لَهُمْ فَرُفِعَ عَنْهُمْ بَقِيَّةُ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ عليه السلام.

(ابن كثير) .

وقيل : وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ، ولا يدخلونها إلاّ بجواز منهم .

- **قال الخازن** : قوله تعالى (إن شاء الله آمنين) قيل : إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله .

وقيل : إنه عائد إلى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر .

وقيل : إن هذا الاستثناء يرجع إلى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله .

وقيل : إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم إن شاء الله فعلى هذا يكون قوله إن شاء الله للتبرك فهو كقوله ﷺ (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) مع علمه أنه لاحق بهم .

(**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ**) أي : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذي يجلس عليه، تكريماً لهما، وإعلاء من شأنهما.

- والمراد بالعرش ههنا السرير الذي كان يجلس عليه يوسف .

(**وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا**) أي : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف، وكان ذلك جائزا في شريعتهم على أنه لون من التحية، وليس المقصود به السجود الشرعي لأنه لا يكون إلا لله تعالى .

- **قال ابن كثير** : قال ابن عباس وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي السَّرِيرَ، أَيْ أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً أَيْ سَجَدَ لَهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْبَاقُونَ. وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا .
- **ثم قال** : ... وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سَلَّمُوا عَلَى الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عليه السلام، فَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ، وَجُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا مَضْمُونُ قَوْلِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مُعَاذًا قَدِمَ الشَّامَ فَوَجَدَهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ سَجَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ، وَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حَقِّهِ عَلَيْهَا» . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّ سَلْمَانَ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ سَلْمَانُ حَدِيثَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، فَسَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَسْجُدْ لِي يَا سَلْمَانُ، وَاسْجُدْ لِلْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ» ، وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، وَلِهَذَا خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا .

(**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**) أي : وقال يوسف لأبيه: هذا السجود الذي سجدتموه لي الآن، هو تفسير رؤياي التي رأيتها في صغرى. فقد جعل ربي هذه الرؤيا حقاً، وأراني تأويلها وتفسيرها بعد أن مضى عليها الزمن الطويل.

قالوا: وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة.

والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن في مطلع هذه السورة في قوله (يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ) .

- **قال الرازي** : اختلفوا في مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون ، وهو قول الأكثرين .

(**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ**) أي : قال يوسف لأبيه أيضاً: وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ربي- عز وجل- إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ بعد أن مكثت بين جدرانه بضع سنين .

- قال المفسرون : ولم يذكر قصة الجب تكرماً منه ، لئلا يخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم .
- **قال الشوكاني** : ولم يذكر إخراجه من الجبّ :

لأن في ذكره نوع تثريب للإخوة ، وقد قال : لا تثريب عليكم . وقد تقدّم سبب سجنه ومدّة بقائه فيه .

وقد قيل : إن وجه عدم ذكر إخراجه من الجبّ أن المنة كانت في إخراجه من السجن أكبر من المنة في إخراجه من الجبّ ، وفيه نظر .

- قال بعضهم : أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكاً بل صيروه عبداً ، أما لما خرج من السجن صيروه ملكاً فكان هذا الإخراج أقرب من أن يكون إنعاماً كاملاً .

- **قال الخازن** : إنما ذكر إنعام الله عليه في إخراجه من السجن وإن كان الجب أصعب منه استعمالاً للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن كانت أعظم من إخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سبباً لحصوله في العبودية والرق وخروجه من السجن كان سبباً لوصوله إلى الملك .

وقيل : إن دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه .

- يؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن: هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

(**وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**) أي : وقد أحسن بي ربي حيث أخرجني من السجن، وأحسن بي أيضاً حيث يسر لكم أموركم، وجمعني بكم في مصر، بعد أن كنتم مقيمين في البادية في أرض كنعان بفلسطين.

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَجَآءَ بِكُمْ مِّنَ البدو) يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبَرية ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها ، وأن الله لم يبعث نبياً من أهل البادية.

وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع .

- **قال الطبري** : ذُكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة ، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف .

(**مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**) أي : أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء .

- **قال أبو حيان** : وذَكَر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاءٍ وشدة ، كانت أحسن موقعاً .
- **قال الشوكاني** : أي أفسد بيننا وحمل بعضنا على بعض ، يقال : نزغه : إذا نخسه ، فأصله من نخس الدابة ليقوى مشيها . وأحال يوسف ذنب إخوته على الشيطان تكرماً منه وتأدّباً .
- **قال السعدي** : فلم يقل "نزغ الشيطان إخوتي" بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

(**إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء**) اللطيف هو البَرّ بعباده الذي يَلطُف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون ؛ كقوله (اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ) .

وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور ؛ والمراد هنا الإكرام والرفق.

(**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**) بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ .

(**الْحَكِيم**) فِي أقواله وأفعاله وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَمَا يَخْتَارُهُ وَيُرِيدُهُ ، الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم .
الحكيم : في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

الفوائد :

١-مشروعية الخروج خارج المدينة لاستقبال أهل الكمال والفضل .

٢-أن الأمن ملاك العافية .

٣-وجوب إكرام الوالدين .

٤-صدق رؤيا يوسف .

٥-قد يتأخر تأويل الرؤيا سنوات كثيرة .

٦-يكره التذكير بالإساءة بعد العفو عن صاحبها .

٧-بيان نسبة النزغ إلى الشيطان ، لأنه بوسوسته .

٨- أن الانتقال من البادية نعمة ، لما يلحق أهل البادية من الجفا والبعد عن الموارد .

(**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)**) .

[يوسف : ١٠١] .

(**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ**) أي: يا رب قد أعطيتني شيئاً عظيماً من الملك والسلطان بفضلك وكرمك.

- **قال الشوكاني** : من " للتبعيض ، أي : بعض الملك ، لأنه لم يؤت كل الملك ، إنما أوتي ملكاً خاصاً ، وهو ملك مصر في زمن خاص.

(**وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**) أي : وَعَلَّمْتَنِي- أيضاً- شيئاً كثيراً مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ أي: من تفسيرها وتعبيرها تعبيرا صادقا بتوفيقك وإحسانك.

- **قال الشوكاني** : أي بعضها ، لأنه لم يؤت جميع علم التأويل ، سواء أريد به مطلق العلم والفهم ، أو مجرد تأويل الرؤيا.

(**فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) أي : خالقهما على غير مثال سابق .

(**أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ**) أَنْتَ وَلِيِّي وناصري ومعيني فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ.

(**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**) أي : تَوَفَّنِي عند ما يدركني أجلى على الإسلام .

(**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**) أي : وَأَلْحِقْنِي في قبري ويوم الحساب بِالصَّالِحِينَ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

- وبهذا الدعاء الجامع الذي توجه به يوسف إلى ربه تعالى يختتم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف عليه السلام لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاؤه عن طاعة ربه، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب..

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم، ويلحقنا بهم، ويوفقنا للسير على نهجهم ...

مبحث : ١

- **قال ابن كثير** : هَذَا دُعَاءٌ مَنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ، دَعَا بِهِ ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عَلَيْهِ بِاجْتِمَاعِهِ بِأَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ، وَمَا مَنَّ

اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَتَوَفَّاهُ مُسْلِمًا حِينَ يَتَوَفَّاهُ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ: وَأَنْ يُلْحِقَهُ بِالصَّالِحِينَ وَهُمْ إِخْوَانُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ والمرسلين، صلوات الله وسلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

وقال رحمه الله : ... وَهَذَا الدُّعَاءُ :

يُحْتَمَلُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السلام، قَالَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ .

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ في الرفيق الأعلى» ثلاثاً .

وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ سَأَلَ الْوَفَاةَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّحَاقَ بالصالحين إذا جاء أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأله ذَلِكَ مُنْجَزًا .

كَمَا يَقُولُ الدَّاعِي لِغَيْرِهِ: أَمَاتَكَ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيَقُولُ الدَّاعِي: اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَتُوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، **وَيُحْتَمَلُ** أَنَّهُ سَأَلَ ذَلِكَ مُنْجَزًا .

وَكَانَ ذَلِكَ سَائِغًا فِي مِلَّتِهِمْ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ قَوْلُهُ: تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ لَمَّا جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ وَأَقَرَّ عَيْنَهُ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مَغْمُورٌ فِي الدُّنْيَا وَمُلْكِهَا ونضارتها، اشتاق إِلَى الصَّالِحِينَ قَبْلَهُ.

- فقوله (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا) . هل هو طلب منه للوفاة أو لا ؟
- **فقال قتادة** : سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله ، وكثير من المفسرين على هذا القول .
- **قال ابن عطية** : ذكر كثير من المفسرين : أن يوسف عليه السلام لما عدد في هذه الآية نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه ولقاء الجلة وصالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين ، ورأى أن الدنيا كلها قليلة فتمنى الموت في قوله (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) وقال ابن عباس : " لم يتمن الموت نبي غير يوسف " ، وذكر المهدوي تأويلاً آخر – وهو الأقوى عندي – أن ليس في الآية تمني موت – وإنما عدد يوسف عليه السلام نعم الله عنده ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره أي (توفني) – إذا حان أجلي – على الإسلام ، واجعل لحاقي بالصالحين ، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت .
- **قال القرطبي** : ... وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنّى الوفاة على الإسلام ؛ أي إذا جاء أَجَلِي تَوَفَّنِي مسلماً ؛ وهذا قول الجمهور.

مبحث : ١

يحرم تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فقر أو غيرهما .

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ اَلْمَوْتَ لِضُرٍّ يَنْزِلُ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلْ: اَللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ اَلْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ اَلْوَفَاةُ خَيْرًا لِي) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وعند ابن حبان (... لضر نزل به في الدنيا) .

وعن خباب قال : (لولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به) رواه البخاري .

مبحث : ٢

يجوز لخوف الفتنة .

- **قال ابن كثير** : وأما إِذَا كَانَ فِتْنَةً فِي الدِّينِ فَيَجُوزُ سُؤَالُ الْمَوْتِ .
- **قال ابن رجب** : وأما تمني خوف فتنة في الدين ، فإنه يجوز بغير خلاف .
- وقال في موضع آخر : هو جائز عند أكثر العلماء .

كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ السَّحَرَةِ لَمَّا أَرَادَهُمْ فِرْعَوْنُ عَنْ دِينِهِمْ وَتَهَدَّدَهُمْ بِالْقَتْلِ (قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ).

وَقَالَتْ مَرْيَمُ لَمَّا أَجَاءَهَا الْمَخَاضُ، وهو الطلق، إلى جذع النخلة (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا) لما علمت مِنْ أَنَّ النَّاسَ يَقْذِفُونَهَا بِالْفَاحِشَةِ، لِأَنَّهَا لَمْ تكن ذات زوج .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال (... وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) رواه أحمد .

وقال ﷺ (والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول : يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدين إلا البلاء) رواه مسلم .

فقوله ﷺ (وليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين .

قال عمر (اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي ، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط) .

وتمنت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر فاستكثرته وقالت : اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعدها ، فماتت قبل أن يدركها عطاء ثان لعمر .

وسأل عمر بن عبد العزيز من ظن به إجابة الدعاء أن يدعو له بالموت، لما ثقلت عليه الرعية، وخشي العجز عن القيام بحقوقهم.

وطُلب كثير من السلف الصالح إلى بعض الولايات ، فدعوا لأنفسهم بالموت فماتوا .

واشتهر بعضهم واطلع على بعض عمل أحدهم أو معاملته مع الله فدعا لنفسه بالموت فمات .

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيراً فسئل عن ذلك فقال : ما يدريني لعلي أدخل في بدعة ، لعلي أدخل فيما لا يحل لي ، لعلي أدخل في فتنة أكون قد مت فسبقت هذا .

وفي المسند عن محمود بن لبيد . عن النبي ﷺ قال (اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت ، والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب) .

- **قال ابن عطية** : فيشبه أن قول النبي ﷺ : لضر نزل به – إنما يريد ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحاً .

مبحث : ٣

الحكمة من تحريم تمني الإنسان الموت بسبب الضر الدنيوي ؟

أولاً : أنه يدل على عدم الصبر ، والمسلم مطالب بالصبر والاحتساب .

ثانياً : أن بقاء المسلم قد يكون خيراً له .

ففي الحديث : عن أبي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال (لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ وَلاَ يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لاَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلاَّ خَيْرًا) رواه مسلم .

- **قال الحافظ** : فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت ، فإن الحياة يتسبب منها العمل ، والعمل يحصل زيادة الثواب ، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال .

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ). رواه البخاري

ثالثاً : أن الإنسان لا يدري ما الأفضل له ، البقاء أم الموت .

مبحث : ٤

- **قال ابن القيم**: جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه

وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

مبحث : ٥

دين الأنبياء جميعا هو الإسلام .

فنوح يقول لقومه : (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

والإسلام هو الدين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ويوصي كل من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً : (فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون) .

وموسى يقول لقومه : (يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) .

والحواريون يقولون لعيسى : (آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

وحين سمع فريق من أهل الكتاب القرآن (قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِين) .

الفوائد :

١-الشكر بريد المزيد .

٢-الدين الحق هو النعمة العظمى .الأنبياء يسألون أحسن الدعاء .

٣-الشوق إلى الله والحنين إلى رفقة الصالحين في الملكوت الأعلى .

٤-غاية المؤمن الوفاة على الإسلام .

٥-إسناد الفضل إلى الله .

٦-سؤال الله الثبات على الإسلام حتى الممات .

٧-الافتقار إلى الله .

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)) .

[يوسف : ١٠٢] .

(**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ**) اسم الإشارة في قوله سبحانه ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ.... يعود على ما ذكره الله- تعالى- في هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم، أي: ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة، وما قصصناه عليك في غيرها مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ .

(**مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ**) أي : من الأخبار الغيبية التي لا يعلمها علما تاما شاملا إلا الله تعالى وحده.

(**نُوحِيهِ إِلَيْكَ**) وَنُعْلِمُكَ به يا محمد لِمَا فِيهِ مِنَ الْعِبْرَةِ لَكَ، وَالِاتِّعَاظِ لِمَنْ خَالَفَكَ .

والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر العظيم الشأن.

والوحي: لغة الإعلام بسرعة.

وشرعاً: إخبار الله تعالى لنبي من أنبيائه بما يشاءه من شرعه.

(**وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**) أي : أي ومما يشهد بأن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة من أنباء الغيب، أنك- أيها الرسول الكريم- ما كنت حاضرا مع إخوة يوسف، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به، ثم استقر رأيهم على إلقائه في الجب، وما كنت حاضرا أيضا وقت أن مكرت امرأة العزيز بيوسف، وما كنت مشاهدا لتلك الأحداث المتنوعة التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة، ولكنا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس، ولينتفعوا بما فيه من حكم وأحكام، وعبر

وعظات.

كما قال تعالى في قصة نوح (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقوله تعالى في خلال قصة موسى عليه السلام(وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) .

وقوله تعالى في خلال حديثه عن مريم (ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) .

إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أن هذا القرآن من عند الله تعالى لأن النبي ﷺ لم يكن معاصرا لمن جاء القرآن بقصصهم، ولم يطلع على كتاب فيه خبرهم، فلم يبق لعلمه ﷺ بذلك طريق إلا طريق الوحى.

- فائدة ذكر الله لنبيه ﷺ قصص الأنبياء ؟

أولاً : لتثبيت النبي ﷺ .

قال تعالى (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، فإذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه.

كما قال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) .

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) .

- **وقال الخازن** : وذلك لأن النبي ﷺ إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه .

ثانياً : ليعتبر بها أولوا الألباب .

كما قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) .

الفوائد :

١-فيه دلالة على نبوّة محمد ﷺ وأن ما جاء به حق .

٢-هذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم رسولنا محمد ﷺ .

٣-الإيمان بوجوب كل ما جاء به الرسول ﷺ .

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)) .

[يوسف : ١٠٣] .

(**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) أي : وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو أكثر الناس على العموم ، ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم .

كما قال تعالى (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) .

وقال تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ).

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا

آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ).

وقال تعالى (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ).

وقال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ).

وقال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ).

وقال تعالى (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ).

وقال تعالى (وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ).

وقال تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ).

وقال ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) متفق عليه.

فما أكثر ما ذم الله عز وجل الكثرة في كنابه ، ومدح القلة:

فقال: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

وقال عز وجل: (... وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.) .

قال بعض السلف رحمهم الله : لا تزهد في الحق لقلة السالكين ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين.

- **قال الإمام الشاطبي**: وهذه سنة الله في الخلق: أن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل لقوله تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وقليل من عبادي الشكور) ولينجز الله ما وعد به نبيه ﷺ من عود وصف الغربة إليه فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم وذلك حين يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً وتصير السنة بدعة والبدعة سنة.
- قال ابن مسعود : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.
- وعن الفضيل بن عياض : اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين واياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

الفوائد :

١– حكمة الله أن أكثر الناس على الباطل .

٢–أن ذلك لا ينبغي أن يحزن الداعية .

٣–بيان شدة حرص النبي ﷺ على إيمان قومه .

٤–أن الهداية بيد الله .

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤))

[يوسف : ١٠٤] .

(**وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**) أي : ما تَسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَذَا النُّصْحِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ وَالرُّشْدِ مَنْ أَجْرٍ، أَيْ مِنْ جُعَالَةٍ وَلَا أُجْرَةٍ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ تَفْعَلُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَنُصْحًا لِخَلْقِهِ .

أي : كما يفعل غيرك من الكهان والأحبار والرهبان .

كما قال تعالى (قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) .

وقال تعالى عن الأنبياء : عَنْ نُوح ، وَهُود ، وَصَالِح ، وَلُوط ، وَشُعَيْب عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا).

- **قال أبو حازم** –رحمه الله –: لا تكون عالماً حتى تكون فيك خصال: لا تبغ على من فوقك ولا تحقر من دونك ولا تأخذ على علمك دنيا. (المداراة).

جلس الحسن –رحمه الله – يُحَدّث فأُهدِيَ له فردَّه، وقال: إن من جلس هذا المجلس ثم قَبِل ، فليس له عند الله خلاق ، أو قال: فليس له خلاق (الزهد لأحمد).

- **قال يوسف بن زكريا** –رحمه الله: كان محمد بن يوسف، لا يشتري من خباز واحد، ولا من بقال واحد، وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني؟ (حلية الأولياء).

(**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**) أي : ما هذا القرآن الذي تقرؤه عليهم إلا تذكير وعظة وهداية للعالمين كافة لا يختص به قوم دون قوم، ولا جنس دون جنس.

ومن أسماء القرآن الذكر ، كما قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر).

- **قال ابن جرير** في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره ، ذكّر به عباده ، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه ، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه ، كما قال جل ثناؤه (وإنه لذكر لك ولقومك) يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

- **وقال الشيخ ابن عثيمين** رحمه الله: وسمي القرآن ذكراً:

أولاً: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانياً: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ).

ثالثاً: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعاً: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ).

خامساً: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

الفوائد :

١- أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَجَّانًا مِنْ غَيْرِ أَخْذِ عِوَضٍ عَلَى ذَلِك .

٢- ومنع الله على الأنبياء أن يأخذوا جُعلاً في مقابل التبليغ ، لأنهم لو أخذوه لكانوا يتهمونهم بأنهم أرادوا بما جاءوا به من أجل المال ، ولئلا يثقل الناس ، لأن النفوس مجبولة على بغض المغرم (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ).

٣-من علامة نصح الداعية أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

٤- أن القرآن تذكير للناس .

٥- الإشارة إلى إخلاص النبي ﷺ في دعوته .

(**وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥))**
[يوسف : ١٠٥] .

(**وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غَفْلَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ كَوَاكِبَ زَاهِرَاتٍ ثَوَابِتَ، وَسَيَّارَاتٍ وَأَفْلَاكٍ دَائِرَاتٍ، وَالْجَمِيعُ مُسَخَّرَاتٌ، وَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قِطَعٍ مُتَجَاوِرَاتٍ، وَحَدَائِقَ وَجَنَّاتٍ، وَجِبَالٍ رَاسِيَاتٍ، وَبِحَارٍ زَاخِرَاتٍ، وَأَمْوَاجٍ مُتَلَاطِمَاتٍ، وَقِفَارٍ شَاسِعَاتٍ، وَكَمْ مِنْ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتٍ، وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ، وَثَمَرَاتٍ مُتَشَابِهَةٍ وَمُخْتَلِفَاتٍ فِي الطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَلْوَانِ وَالصِّفَاتِ، فَسُبْحَانَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، خَالِقِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمُتَفَرِّدِ بِالدَّوَامِ والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك. (ابن كثير)

وآيات الله الكثيرة تدل على وحدانيته وعظمته كثيرة ومتنوعة .

قال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون).

وقال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

وقال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده.

- وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة.

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

- **قال ابن القيم:** الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...).

وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن.

والثاني كقوله (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ).

- وقد ذم الله المتغافلين المعرضين عن التفكر .

قال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ).

- **قال ابن القيم:** إذا غذي القلب بالتذكر، وسقيَ بالتفكر، ونُقي من الدغل، رأى العجائب وألهم الحكمة.
- **وقال ابنُ بَطَّال:** إن الإنسان إذا كَمُل إيمانه، وكَثُر تفكُّره، كان الغالِبُ علَيْه الإشفاقَ والخَوْف.
- **وقال وهب بن منبه:** ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا علِم، وما علِم امرؤ قط إلا عمِل.
- **وقال عمر بن عبد العزيز:** الكلام بذكر الله حسن، والفكرةُ في نِعم الله أفضل العبادة.

- **وقال بشر**: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط.
- **وقال ابن عباس**: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ.

بينما أبو شريح يمشي يوماً إذ جلس، ثم بكى بكاء شديداً، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي.

- **وقال ابن الجوزي**: همة المؤمن متعلقةٌ بالآخرة، فكل ما في الدنيا يحرّكه إلى ذكر الآخرة، وكل من شغله شيء فهمته شغله.

ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط.

والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.

- **قال بعض الحكماء**: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونوّره بالفكر، وموّته بالزهد، وقوّه باليقين، وذلله بالموت، وقرّره بالفناء، وبصّره فجائع الدنيا.

سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال: سبحان الله! سماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير!!

- **قال ابن القيم**: أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك .

الفوائد :

١-ذم الغفلة وعدم التفكر في الآيات الكونية .

٢-فضيلة التفكر فيما خلق الله من الآيات العظيمة .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)) .

[يوسف : ١٠٦] .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) أي : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله في إقرارهم بوجوده، وفي اعترافهم بأنه هو الخالق، إلا وهم مشركون به في عقيدتهم وفي عبادتهم وفي تصرفاتهم ، فإنهم مع اعترافهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتقربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى.

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهراً أم خفياً ، كبيراً أم صغيراً .

- **قال ابن كثير** : قوله تعالى (وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ، وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالِ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ .

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَعِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.

وفي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَالُوا: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ قَدْ» أَيْ حَسْبُ حَسْبُ، لَا تَزِيدُوا عَلَى هَذَا .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وهذا هو الشرك الأعظم يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ .

- **قال السمرقندي** : مقرون أن الله خالقهم وهم مع ذلك يجعلون لله شريكاً .

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ قَالَ: ذَلِكَ الْمُنَافِقُ يَعْمَلُ إِذَا عَمِلَ رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك .

الفوائد :

١-لا ينفع الإيمان مع الشرك .

٢- تحريم الشرك .

٣- وقوع الشرك في كثير من الناس .

٤- التحذير من الشرك .

(أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٠٧))

[يوسف : ١٠٧] .

(أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ) أيْ : أَفَأَمِنَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ أَمْرٌ يَغْشَاهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

- **قال الشوكاني** : الاستفهام للإنكار ، والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى (يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) وقيل : هي الساعة ، وقيل : هي الصواعق والقوارع ، ولا مانع من للحمل على العموم .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) .

وقوله (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ) .

(أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) أو تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها، بحيث لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها.

- **مباحث الساعة :**

١- سميت القيامة بالساعة؛ لوقوعها بغتة، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

٢- والساعة تطلق على ثلاثة معان:

الساعة الصغرى: وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لدخوله في عالم الآخرة.

والساعة الوسطى: وهي موت أهل القرن الواحد ،

ويؤيد ذلك ما روته عائشة قالت (كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال: إن يعش هذا لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم) رواه مسلم. أي: موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين.

والساعة الكبرى: وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

٣- إذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى .

كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ). قال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ

إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

٤- لا يعلم متى قيام الساعة إلا الله.

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) أي لا يعلم الوقت الذي فيه يحصل قيام القيامة إلا الله سبحانه.

وقال تعال (إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة).

وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا).

وقال تعالى (إِنَّ الساعة ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا).

ولما سأل جبريل رسول الله ﷺ وقال: متى الساعة فقال عليه السلام: " ليس المسؤول عنها بأعلم من السائل.

٥- لكن هي قريبة:

قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ).

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

٦- السبب في إخفائها:

قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون، كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية.

٧- أن للساعة علامات تدل على قربها.

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين:

أشراط صغرى.

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة، وتكون من نوع المعتاد، كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان.

أشراط كبرى.

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة، وتكون غير معتادة الوقوع، كظهور الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغرب

الفوائد :

١-أن الشرك وترك التوحيد سبب للعذاب المباغت والعقاب العاجل .

٢-الخوف من الله وعقابه .

٣-إثبات الساعة .

٤-أن الساعة تأتي بغتة .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)) .

[يوسف : ١٠٨] .

(**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**) يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، آمِرًا لَهُ أَنْ يخبر الناس أن هذه سبيله

أي طريقته وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

– قوله (أدعو إلى الله) لأن الدعاة إلى الله ينقسمون قسمين :

داع إلى الله .

وداع إلى نفسه .

فالداعي إلى الله هو المخلص الذي يريد أن يوصل الناس إلى الله تعالى .

والداعي إلى نفسه يدعو إلى الحق لأجل أن يعظم بين الناس ويحترم .

- **قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب** : التنبيه على الإخلاص ، لأن كثيرا من الناس لو دعا إلى الحق ، فهو يدعو إلى نفسه .

(**عَلَى بَصِيرَةٍ**) أي : علم ، والعلم هنا يشمل :

أولاً : العلم بحال المدعو .

ولهذا قال ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : (إنك تأتي قوماً أهل كتاب) ليعرف حالهم ويستعد لهم ، فتعرف مستواه العلمي ومستواه الحديثي ، حتى تتأهب له وتجادله .

ثانياً : العلم فيما تدعو إليه :

بأن يكون عالماً بالحكم الشرعي .

ثالثاً : أن يكون عالماً في كيفية الدعوة :

قال تعالى (ادع إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

(**أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) قيل المعنى : أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة .

- **قال ابن كثير** : أي وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَصِيرَةٍ ويقين وبرهان عقلي وشرعي.

وقيل : أنا وأتباعي على بصيرة .

(**وَسُبْحَانَ اللَّهِ**) أَيْ : وَأُنَزِّهُ اللَّهَ وَأُجِلُّهُ وَأُعَظِّمُهُ وَأُقَدِّسُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَزِيرٌ أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا (تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً) .

(**وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) به في عبادته أو طاعته في أي وقت من الأوقات.

الفوائد :

١- يجب أن تكون الدعوة إلى الله قائمة على الحجة والبرهان .

٢- وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله .

٣- أنه يجب على الدعية أن يكون عالماً وبصيراً فيما يدعو إليه ، والعلم هنا يشمل :

(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٠٩)**) .

[يوسف : ١٠٩] .

(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً**) يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرْسَلَ رُسُلَهُ مِنَ الرِّجَالِ لَا مِنَ النِّسَاءِ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُوحِ إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ بَنِي آدَمَ وَحْيَ تَشْرِيعٍ.

فليس في النساء نبية .

(**نُوحِي إِلَيْهِم**) هذا من خصائص الأنبياء .

خصائص الأنبياء :

أولاً : تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (مَا كَانَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا. قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ قَالَ: "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

ثانياً : يدفنون حيث يموتون .

قال ﷺ (لم يدفن نبي إلا حيث قبض) . رواه أحمد

ثالثاً : يخبرون عند موتهم .

قال ﷺ (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة) . متفق عليه

رابعاً : أحياء في قبورهم .

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : (رأيت موسى يصلي في قبره) .

خامساً : لا تأكل الأرض أجسادهم .

قال ﷺ (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) . رواه أبو داود

سادساً : الوحي .

قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) .

(**من أَهْلِ الْقُرَى**) الْمُرَادُ بِالْقُرَى الْمُدُنُ لَا أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي الَّذِينَ هُمْ من أَجْفَى النَّاسِ طِبَاعًا وَأَخْلَاقًا، وَهَذَا هُوَ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ أَنَّ أَهْلَ الْمُدُنِ أَرَقُّ طِبَاعًا وَأَلْطَفُ مِنْ أَهْلِ سَوَادِهِمْ، وَأَهْلُ الرِّيفِ وَالسَّوَادِ أَقْرَبُ حَالًا مِنَ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الْبَوَادِي .

– فإن قيل : ما الجواب عن قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) ؟

قيل : أن المراد بقوله تعالى (وجاء بكم من البدو) موضع له يقال له : بدا . وقد ضعف هذا القول الشوكاني ، والآلوسي .

- **وقال الشنقيطي** : ولا يخفى بعد هذا القول .

وقيل : أن يعقوب عليه السلام من الحضر ثم انتقل بعد ذلك إلى البادية وتحول إليها، ولم يكن قبل من أهلها، ويدل على ذلك حال والده إبراهيم عليه السلام، وسكناه الشام، ويبدو أنه أصابهم فقر وجدب أو ضائقة ما فخرجوا من حاضرتهم، فقد قالوا: "يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر...

وقيل : أن البدو الذي جاءوا منه مستند للحضر فهو في حكمه.

وقيل : أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو مستقر في منازل وربوع.

وقيل : أنه بدو بالنسبة لحاضرة مصر، كما القرية أحياناً للمدينة الكبيرة تبدو ليست بحاضرة. انظر: (المحرر الوجيز) لابن عطية.

وقيل : إن المراد بقول الله تعالى (**من أَهْلِ الْقُرَى**) أي : ليسوا من أهل السماء .

وذهب إليه ابن عاشور في (التحرير والتنوير): أن الآية لا تدل على الحصر، ومثل بيعقوب عليه السلام وأنه من أهل البدو.

(**أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ**) يعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْأَرْضِ .

(**فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**) أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ، كَيْفَ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، كَقَوْلِهِ (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها) فَإِذَا اسْتَمَعُوا خَبَرَ ذَلِكَ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ،

وَهَذِهِ كَانَتْ سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ .

كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

وقال تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) .

(سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) السير المشي و (فِي الْأَرْضِ) أي: على الأرض ف (في) بمعنى (على).

- وهذا السير يشمل السير بالأبدان والسير بالقلوب، والسير بالقلوب: أن يقرأ ويتأمل ما وقع للأمم السابقة من العقوبات، وذلك بقراءة تاريخهم بما صح منها ، وأصح شيء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، والسير بالأقدام بأن ينظروا بأبصارهم آثار المكذبين كما في قوله تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ).

(**وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ**) أي : الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار .

(**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**) أي : أفلا تعقلون فتؤمنون .

الفوائد :

١ - الأمر بالسير في الأرض للاعتبار ، سواء كان بالبصائر أو بالبصر.

٢ - فضل الاعتبار وأنه مطلوب.

٣ - عقوبة التكذيب لله ولرسله.

(**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّــواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)**) .

[يوسف : ١١٠] .

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ) فِي قَوْلِهِ: (كُذِبُوا) قِرَاءَتَانِ إِحْدَاهُمَا بِالتَّشْدِيدِ قَدْ كُذِّبُوا ، وهذا قول الأكثر .

والمعنى عليها واضح أي : ظنّ الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب ، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظنّ القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد .

وأما قراءة (التخفيف) فاختلف العلماء في تفسيرها على أقوال :

- **قال ابن جزي** : قوله تعالى (وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ) قرئ بتشديد الذال وتخفيفها ، فأما التشديد فالضمير في ظنوا وكذبوا للرسل ، والظن يحتمل أن يكون على بابه ، أو بمعنى اليقين : أي علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيئسوا من إيمانهم .

وأما التخفيف، فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم، أي ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة، أو من النصرة عليهم.

- **والسعدي رحمه الله ذكر في تفسيره قولاً رجحه بعض العلماء؛ فقال:** يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ) وهم الرسل وأتباعهم (وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) أي: ولا يرد عذابنا، عمن اجترم، وتجرأ على الله (فما له من قوة ولا ناصر) . (التفسير) .

(**جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**) أي: جاءهم نصرنا الذي وعدناهم به، بأن أنزلنا

العذاب على أعدائهم، فنجا من نشاء إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم.

الفوائد :

١- إذا اشتد الكرب وعظم الخطب كان الفرج حينئذٍ قريبًا في الغالب.

قال تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ).

وأخبر عن يعقوب عليه السلام أنه لم ييأس من لقاء يوسف وقال لإخوته (اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ). وقال (عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً).

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الكرب، أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وجُدِ الإياس من كشفه من جهة المخلوق ووقع التعلق بالخالق استجاب له وكشف عنه.

فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين كما قال الإمام أحمد. واستدل عليه بقول إبراهيم – عليه السلام – لما عرض عليه جبريل في الهواء وقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

والتوكل من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج فإن الله يكفي من توكل عليه كما قال (ومَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

- **قال الفضيل:** والله ولو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئًا لأعطاك مولاك كما تريد.
- والبلاء له فوائد :

ومنها: زوالُ قسوة القلوب وحدوثُ رقَّتِها.

قال بعضُ السلف إن العبدَ لَيُمْرضُ فيذكرُ ذُنُوبَهَ فَيَخْرُجَ منه مثلُ رَأسِ الذباب من خشيةِ اللهِ فيغفرُ له.

ومنها: انْكِسارُهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَ وذِلَّهُ وذلك أَحَبُ إلى اللهِ مِن كثيرٍ مِن طاعاتِ الطائعين.

ومنها: أنها تُوجِبُ لِلعبدِ الرجُوعَ بِقلبه إلى الله عز وجل والوقوفَ ببابه والتضرعَ لَهُ والاستكانة وذلك مِن أعظَمِ فوائِدِ البَلاءِ وقد ذَمَّ اللهُ مَن لا يَسْتكينُ لَهُ عند الشدائد

ومنها: أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده.

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد فكيف بالمؤمنين.

والبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه وذلك على أعلى المقامات وأشرف الدرجات .

٢- حكمة الله تعالى في تأخير النصر .

٣- أن النصر مع الصبر .

٤-أن العاقبة للمؤمنين وهلاك المجرمين .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

[يوسف : ١١١] .

(**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ**) أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم .

(**عِبْرَةٌ لأولِي الألْبَابِ**) أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضا، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

- **قال أبو حيان** : وإنما خص أولو الألباب لأنهم هم الذين ينتفعون بالعبر ، ومن له لب وأجاد النظر ، ورأى ما فيها من

امتحان ولطف وإحسان ، علم أنه أمر من الله تعالى ، ومن عنده تعالى.

- **قال الرازي** : ووجه الاعتبار بقصصهم أمور :

الأول : أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم ، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ، لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته.

الثاني : أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزة دالة على صدق محمد ﷺ .

الثالث : أنه ذكر في أول السورة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص) ثم ذكر في آخرها (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي الألباب) تنبيهاً على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة.

- **قال القشيري** : عِبْرَةٌ منها للملوك في بَسْطِ العدل كما بسط يوسفُ عليه السلام ، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أَحسن إليهم ، وأعتقهم حين مَلَكَهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى ؛ فإن يوسفَ لما ترك هواه رقَّاه الله إلى ما رقَّاه.

وعبرةٌ لأهل الهوى فيما في اتباع الهى من شدة البلاء ، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت الضرَّ والفقر.

وعبرةٌ للمماليك في حضرة السادة ، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلَكَ مُلْكَ العزيز ، وصارت زليخا امرأته حلالاً.

وعبرةٌ في العفو عند المقدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

وعبرةٌ في ثمرة الصبر ، فيقعوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام.

(**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى**) أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة .

(**وَلَكِنْ**) كان .

(**تصديق الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**) أَيْ: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ يُصَدِّقُ مَا فِيهَا مِنَ الصَّحِيحِ، وَيَنْفِي مَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَبْدِيلٍ وَتَغْيِيرٍ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا بِالنَّسَخِ أَوِ التَّقْرِيرِ.

(**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**) يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

كما قال تعالى (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيء) .

وقال تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) .

- **قال ابن كثير** : مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ وَمَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ بِالطَّاعَاتِ وَالْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ، والإخبار عن الأمور الْجَلِيَّةِ، وَعَنِ الْغُيُوبِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الْمُجْمَلَةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ، وَالْإِخْبَارِ عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزهه عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ .

(**وَهُدًى**) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

– فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ). وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ **اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي**).

(**وَرَحْمَةً**) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي:

الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

(**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) بالله ويعملون بشرائعه .

- **قال القرطبي**: قوله تعالى (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به.

كما قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

وقوله (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار .

كما قال تعالى (وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) .

الفوائد :

١- أن من فوائد قصص الأنبياء العظة والاعتبار .

٢- الحث على قراءة قصص الأنبياء لما فيها من العبر والعظات .

٣- أن القرآن هداية لمن آمن يهديه لكل طريق صحيح.

٤ - أنه كلما قوي إيمان الشخص كانت هدايته أقوى، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فمن كان إيمانه أقوى كانت هدايته أكثر.

٥ - فضل الإيمان.

والله أعلم
٢٢ رمضان ١٤٤٠هـ
أخوكم
سليمان بن محمد اللهميد
السعودية - رفحاء